

أيمن الجندى

دوار البحر

(تاريخ سكندري غامض)

رواية

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

دوار البحر

أيمن الجندى

♦ **Author** : Ayman Elgendy	♦ **المؤلف** : أيمن الجندى
♦ **Title** : Sea Sickness	♦ **العنوان** : دوار البحر
♦ **Cover Design by** : Afaq	♦ **تصميم الغلاف** : أفاق
♦ **First Edition** : 2009	♦ **الطبعة** : الأولى ٢٠٠٩
Publication Consultant : Sawsan Bashier	♦ **مستشار النشر** : سوسن بشير
♦ **Manager** : Mostafa Al Sheikh	♦ **المدير المسئول** : مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٠٩ / ٢٠٧٧٩

ISBN: الترقيم الدولي

977-6148-60-3

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR - ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO - EGYPT
Tel: +202-2795-3811 Fax: 00202-2795-4633
E-mail:afaqbooks@yahoo.com - www.afaqbooks.com

٧٥ ش القصر العيني - أمام دار الحكمة - القاهرة - جمهورية مصر العربية ت : ٣٨١١ ٢٧٩٥ فاكس: ٤٦٣٣ ٢٧٩٥

دوار البحر

أيمن الجندى

آفاق للنشر والتوزيع

دوار البحر

(تاريخ سكندري غامض)

قصاصات ورقية يربو عمرها عن السبع السنوات ،، فكرت كثيراً في تجميعها ولكن دوماً ما كان يوقفني شيء ما ، أصطنعه أنا بيدي، وربما ألقي بذنبي على الظروف والحياة وتلك المبررات الواهية ،،، أعلم أن التفاهات تحدث ،، أانظر هنا وهناك ،،، بين الناس وأقوالهم و أفكارهم والأحداث واعتباطها بغير وعي حقيقي منطقي يحركها ستجد بغير صعوبة نفس الأمر التفاهات هي أكثر ما يحدث ،،،، قلما تجد أمراً جديداً يعطي ردة فعل لأفعال جديدة تحرك هذا النهر الساكن منذ أمد ،،، قلما يحدث هذا .

أوافق من سيبدي رأيه بأنها ليست رواية ،،، وأوافق من سيعتبرها رواية ،،، فأنا أيضاً بعد كتابتها- بعفوية تعمدتها- وجدتها لا تأخذ الشكل الروائي بوجوده الشائع المعروف ولكنها أقرب إلى الحكي والبوح عن حقبة في تاريخ أحدهم وآخرين ،،،رحلة فكرية على محك التجربة في سنوات داخل أروقة مسرح الحياة السكندري

خوفاً من الكتابة

كل مرة أكتب فيها شيئاً أشعر وكأنني أقترب من منطقة شائكة جديدة،،، مكان لم أخطُ فيه من قبل،،، هذا النوع من الاقتراب غالباً ما يتطلب وضعيات معينة من المتلقي ، تتطلب مناقشتها بعنف من قبل المفكرين والزملاء الآخرين

أنا لست شخصاً يقبل بالجدال القلمي أو المناقشة العادية ، ولكنه حق أن المنهج التفكيكي يظهر وكأنه يزلزل استقرار الثوابت أو يسبب قلقا أو ربما حتى يجرح آخرين ؛ لذلك ،،، كل مرة أكتب فيها بتلك الوضعية التفكيكية هنالك لحظات خوف ، هذه اللحظات لا تحدث أثناء الكتابة ، بالفعل وأنا أكتب هناك شعور بالمسئولية أستغرب فيه نفسي يملي علي أن ما كتبته هو ما يجب أن يكتب ،،، أنا لم أندم على شيء كتبته بسبب خوفي من تبعات معينة ، لا شيء يؤنبني وأنا أكتب

عندما أذهب للنوم ،في هذه اللحظات بينما أكون نصف نائم وفجأة أجدني مرعوباً مما أفعله وأكلم نفسي قائلاً

- أنت مجنون لتكتب هذا ،،،!!
- أنت مجنون لتهاجم هذا الشيء ،،،
- أنت مجنون لتنقد هذا الشخص ،،!

- أنت مجنون لتجادل في تلك السلطة ، الكتابية أو المؤسسية أو الشخصية أين كانت ،،، !

هناك نوع من الرعب بداخل لاوعيي كما لو ،،، بماذا أستطيع مقارنته؟،،، تخيل طفلا صغيرا وقد فعل فعلة حمقاء رهيبة ،،، فرويد تحدث عن الطفل الذي يحلم بنفسه عارياً ومفزوعاً لرؤية الآخرين له عارياً.

على أي حال ، في مرحلة بداية النوم ومنتصفه يكون لدي الانطباع بأني أرتكب جريمة ما ، شيئًا مشينًا، شيئًا غير مفبول اجتماعياً والتي يجب ألا أقترب منها ثانياً ،، شخص ما يخبرني بعنف :

(ولكنك غير عاقل لتبعات فعلتك هذي ،، !)

هناك شيء أعتقد فيه بشدة وأنا نصف نائم ، توقف عما تفعله !

احرق أوراقك !

ما تفعله غير مقبول !

ولكن اللحظة التي أستيقظ فيها كل شيء يختفي و ينتهي. ما هذا ؟ أو كيف أجد له تفسيراً؟ هو أنه عندما أكون في وعيي ،، يقظان وأكتب أكون بطريقة ما غير واع أكثر من نومي ،،، أثناء النوم هناك نوع من الانتباه والحذر والذي يخبرني الحقيقة ،،، أول ما يفعله أنه يخبرني بأن ما أفعله هو خطير جداً لكن عندما أستيقظ وأكتب فإن هذا الانتباه يكون بحق نائماً، ولهذا أفعل ما يجب أن أفعله وأكتب ما يجب أن أكتبه.

(جاك دريدا)

هذا هو اسمي ،،،،

-١-

،،، يدعونني سماء وأدعوهم أرضاً

أستوقد من اللغو لغتي رفضاً ،،،
ألاغي ناصية الحرف ،،، فألغي الجاذبية
،،، أطفو فوق رهف الأمكنة ،،،طولاً وعرضاً
أكور الوقت من فجر انفجاره
أجتر تاريخا من عشواء ،،، أضاجع الفوضى
أنا ؟؟
ولا أرضى
،،، ولا أرضى ،،،
يدعونني سماء و أدعوهم أرضاً

-٢-

رأيت بكاءه يظل يعبر الحقول

..... وصوته الذي يقول

(أبي.... لأي رحلة تركتني؟)

(مضى في غير يومه)

الصغير والرحلة المبهمة

محمد إبراهيم أبو سنة

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٣-

في ليلة قديمة أكثر جمالاً من ليلتي هذي حملنا الأجولة وألقينا ما فاض من النوح إلى جسد البحر ،،، قال لي من بداخلي : ،،،، عسى يا رفيق الدرب أن ينفجر شريان أليم عن عين للحقيقة ،،، عن عبث الكلمات وعدم جدوى التساؤل ،،، عن المُجرد والمُفند والعقل المُجمد وفوضى المُحدد ، قبل مغيب يوم حتمي للشمس.

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٤-

أما عن ليلتي هذي وقد فاض الكيل وشارف قلمي على حرق أشعاري فقصف ذاته والانتحار ،،،، ليس ثمة ما يُدعى حقيقياً،،، ليس ثمة ما يُدعى حقيقة ، ادعها ما يحلو لك ،،، تمثلات ،،، تخيلات ،،، افتراضات،، تهيؤات،،، ماهية الكلمات بعلاقات الربط والسببية بالأشياء بذاتها وبغيرها من الأشياء والموجودات في إطار المحتمل والممكن داخل نطاق الزمن الشعوري المتغير و النسبي بطبيعته حسب رؤية المُراقب ،،،، أي من هذا العبث الاستهلاكي للغة والذي يحاول دوماً ترويض لحام الحيرة والتساؤل ،، والمعنى ،،،

(الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة في هذا العالم) ،،، يعلو صوته مجعجعاً في فذلكة:

أي حقيقة تلك لذلك الموت ؟ ،،، إن اصطلاح الموت لهو تعبير شائك مربوط بمعنى النهاية المربك انفصامه في الدماغ البشرية ،،، انفصام بين شعورنا الواقعي بأن لكل شيء نهاية ما ،،، لكل شيء تاريخ صلاحية يعطب بعدها وتفنى وظيفته ، ليس لسبب إلا لميل الأشياء التلقائي للتدهور والانحدار لأسفل نحو الأصل المكون له ،،، ولكن في الناحية المضادة هنالك معنى الحياة ، حيث إن كوننا الرياضي كما يصفه الفلكي الإنجليزي جيمس جينز ، بما أنه صار كوناً ،،، تكويناً ،،، فلابد من قواعد ما وإن كانت نسبية تحكمه وإلا فإنه لم يكن كوناً من الأساس بدون رياضيات تحكم بطريقة نسبية الأشياء وعلاقاتها ببعضها البعض ،،،

فالكون نظام ما هو واقع ، والرياضيات نظام ما هو ممكن ، والواقع بالطبع جزء من هذا الممكن ،،، تلك القواعد هي التي ربما تصعد بالأشياء الصغيرة نحو السمو لأعلى نحو تركيبات وبناءات أرقى وأكثر تعقيداً صانعة لدى الوعي شعورا شبيها بذلك الشعور نحو معنى الغاية والهدف وأن ذلك الارتقاء الخفي السبب ما هو إلا نتيجة لسبب ما أو علة أولى فاعلة مريدة ،، ذلك الشعور شبيه بالشعور نحو معنى الموت والتناهي من حيث اكتساب الوعي له من محيطه ومن مخزونه الوراثي المهول ، ولكنه مفارق له من حيث إن معنى الموت والنهاية كحقيقة يمكن النظر له كحقيقة مضادة ،،، أو حقيقة أصلية قديمة تسبق حقيقة التطور والترقي ونشأة ومعنى الحياة

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٥-

الحقيقة تكتب ثم يعاد كتابتها ولا تلبث إلا أن يعاد كتابتها تارة أخرى.... إلى أن يأتي فرد أو جماعة ما؛ ليكتشفوا أن العالم ما هو إلا كذبة كبيرة مختلقة من حقيقة تم نحتها بمهارة أيد ناعمة ... وكما أن الحقيقة والمعنى كالهواء ..فما أسهل أن تتنفس هواء الحقيقة البديء وهواء نسخته المعدلة والمعاد تعديلها؛ لتصير حقيقة المعنى ومعنى الحقيقة كقبض الريح ... الناس بطبيعتهم يكرهون رياح التغيير ....إلا لو امتلك أي فرد أو كل فرد مسدسا عيار ١٥ وبه ٣٠٠ طلقة بالثلاثة في الثانية

-٦-

ثانية تعلم فيها جسدي معنى القشعريرة عندما أطلق عباراته التي لا تزال تردد بين تعاريج عقلي بنفس النبرة ليومي هذا .... (صدفة إيه يا ابن الكلب اللي تخلق كون بالنظام ده ؟؟!) ... وفي أنفسكم أفلا تنظرون ؟؟.... «ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير».

إنه جدي ....الذي ساهم بأكبر جزء من هذا القلق بداخلي . . .ليس قلقاً سلبياً بالطبع وإن كانت نوباته الاكتئابية التي كانت ومازالت تصيبني.... رغماً عن ذلك فهو قلق إيجابي جعلني أشتم رائحة الحرية ونشوتها التي جعلتني أحلق بعيداً عن الحمقى والباهتين ... ولو لوهلات

(إسماعيل أدهم)

هو ذلك الشخص الذي دعاه جدي بابن الكلب ...أديب سكندري ألف كتاب (لماذا أنا ملحد ؟) ... وجدت جثته الغارقة في الغربة طافية على مياه البحر في صباح كئيب غادرته النوارس والأمواج تتقاذف البدن المتخشب في حنان .... وقد عثر البوليس في معطفه على كتاب منه إلى رئيس النيابة يخبره بأنه انتحر لزهده في الحياة وكراهيته لها، وأنه يوصي بعدم دفن جثته في مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها ..... جدي الذي لم يقرأ الكتيب وإنما كان ينبري بشدة للدفاع عن حقيقة إيمانه بوجود الله بينما ينتقد بشدة أي آراء إلحادية دونما التعمق في أو التحقق من هاتيك الآراء ... (أدهم) ...هو اسمه الأول ....كانت المرة الأولى التي أسمع عنه قبل أن أصطدم به كـ (إسماعيل أحمد إسماعيل إبراهيم أدهم) في

خضم محيط قراءاتي التي ألهبت فكري بنيران لم تنطفئ ولا أظنها تنطفئ

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٧-

ولكن ما معنى الصدفة والتصادف ؟

يقول هنري بوانكاريه في أول الباب الرابع من كتابه :

"Science et Methode"

في صدد كلامه عن الصدفة والتصادف :

« إن الصدفة تخفي جهلنا بالأسباب ، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب».

والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه في اعتقاده -أنظر لصديقنا البحاثة إسماعيل مظهر «ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء» ،ص ١٦٣-١٦٧ -منذ تفتح العقل الإنساني،غير أني من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ،معنى دقيقا بث للمرة الأولى في تاريخ الفكر الإنساني في كتابي.

Mathematik und physic ج٢ فصل٧

في صدد الكلام عن الصدفة والتصادف

إن قانون الصدفة يسري في المقادير الكبيرة.

مثال ذلك أن عملية بتر الزائدة الدودية نسبة نجاحها ٩٥٪ . أعني أن ٩٥ حالة تنجح من ١٠٠ حالة ، فلو فرضنا أن مائة مريض دخلوا أحد

المستشفيات لإجراء هذه العملية فإن الجراح يكون مطمئنا إلى أنه سيخرج بنحو ٩٥ حالة من هذه العمليات بنجاح ، فإذا ما سألته : يا دكتور ما نسبة احتمال النجاح في هذه العملية ؟ فإنه يجيبك ٩٥ في المائة ، ويكون مطمئنا لجوابه ، ولكنك إذا سألته : يا دكتور ما نسبة احتمال النجاح في العملية التي ستجريها لفلان ؟ فإنه يصمت ولا يجيبك ؛لأنه يعجز عن معرفة النسبة الاحتمالية.

هذا المثال يوضح معنى قانون في أنها تتصل بالمقادير الكبيرة والكثرة العديدة ، ويكون مفهوم سنة الصدفة وجه الاحتمال في الحدوث، ويكون السبب والنتيجة من حيث هما مظهران للصلة بين حادثتين في النطاق الخاضع لقانون العدد الأعظم الصدفي حالة إمكان محض . ومعنى هذا أن السببية صلة إمكان بين شيئين يخضعان لقانون العدد الأعظم الصدفي.... قانون يتصرف بحرية ورشاقة في عالمنا المتعدد اللانهائي الأشياء والحوادث ، فمثلا لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة أعني بنسبة ١:٣٦ مرة، ففي الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجيء الدش ، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية في شيء.

إذاً يمكننا أن نقول إن الصدفة التي تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطي حالات إمكان . ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض في وحدات وتتداخل وتتناسق ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم...وهكذا خاضعة في حركتها هذه لحالات الإمكان التي يحددها قانون العدد الأعظم الصدفي ، ومثل العالم في ذلك

مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه الحركة في الاصطدام ، فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا في دورة لانهائية ، فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذي تلوته الآن ، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب «أصل الأنواع» وكذا «القرآن» مجموعا منضدا مصححا من نفسه ، ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التي وضعت ستأخذ دورها في الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان في اللانهائية ، فإذا اعتبرنا (ح) رمزا لحالة الاحتمال و(ص) رمزا للنهائية كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات :

ح=ص

وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابا من هذه الكتب ، له وحدته ونظامه وتنضيده إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة.

(إسماعيل أدهم)

(لماذا أنا ملحد ؟)....بتصرف

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٨-

أشتدت وطأة الأعوام الأخيرة في حياة جدي ...فقد غزته الشيخوخة وأمراضها بشدة فثقل سمعه وقل بصره حتى الوصول للتخلي عن هوايته الأثيرة والوحيدة ربما...القراءة ...أصابه ذلك باكتئاب ما...ازدادت أعراض الشيخوخة بمصاحبة الزهايمر لها ....فقدان القدرة على التمييز بين الأشخاص و الأشياء و الأوقات ....والتخاريف ..ولكنها عند جدي

لم تكن تخاريف مألوفة....كان لها منحى غريب ....منحى إلحادي أثار دهشتي....هذا ليس أنت يا رجل ودفاعك وإيمانك بالعقيدة !!

أحاديث أخيرة بيننا مع ثقل سمعه كانت آراؤه الهادمة لأي مقدس تتقاذف في وجهي ولا أستطيع مناقشته لثقل سمعه ....ااااااايه ؟؟.... حتى السؤال الذي وجد أنه قد يعيد إليه صوابه.....

تجاربك مع الغيبيات خلال سنوات عمرك ...الأحلام الغريبة التزامنية....لقاؤك بابنتك التي توفيت قبل إكمال عامها الأول ولكن بعد تسعة عشر عاما ...رأيتها وهي في ربيعها العشرين على محطة القطار وحديثكما القصير الودود.... ألم تخبرني بهذا يا رجل؟...أم أن كل تلك الأقاصيص كانت أكاذيب ...هلاوس ؟؟.......لا ....(لا أعتقد هذا).... هكذا كنت أخاطب نفسي تلك الأيام

ااااااااااااااااااااااااااااااااااااا

-٩-

ليلة ثلاثاء ..يبدو أنها النهاية يا صغيرتي المتنمرة .... نزلت من مسكني بالدور الرابع لرؤية جدي....اشتد نحوله.....فقد النطق...فقط عيناه الجاحظتان مصوبتان بذهول تجاهي ....أجلس معه قرابة الساعة وقلبي يعتصره الألم ثم أصعد للنوم قبل ارتحالي صباحا لنقطتي الطبية العسكرية التي كنت أخدم فيها ... يأتي التليفون فجراً ليوقظني مفزوعاً...إنه أخي يخبرني بموت جدي ....بلامبالاة أغلق الهاتف وأكمل نومي...آآآآه

ااااااااااااااااااااااااااااااااااااا

كما كنت أخاطب نفسي تلك الأيام ....

يضربون سنابكهم بالأرض...لهاث أنفاسهم وشعر الرقبة والذيل المنتصب في جلال ......ينطلق الخيلان ....أسود الليل الشجي .... أبيض النور الحر....ينطلقان عبر مروجهما الخضراء .... ضربة كرباجه على السور الحديدي كانت إشارة البدء لانطلاق الفرسين في سباق محموم ...

ولأني أعرف أن شريعة الغاب قد نصت على أن البقاء للأقوى أحياناً ...بل قل كثيراً الأغبى ..وفي زخم الإنسان الحالي ربما يكون البقاء للأجمل......قد شددت جواربي الجلدية....ضغطتين على عضلتي الماضغة.....وليت شعري بغيتي الضائعة !!!.....الخيل يجري لمستقر له بغير مبرر يتمنطق عقلي ...ولكن فيم أنا أتسابق ؟ ....ورغم سؤالاتي فلن أفسد نشوة الحضور الذين دفعوا دماء قلوبهم من أجل مشاهدة أول بشري يسابق الخيل ...

وكأن قدميه قد اُستبدلتا بمروحة من ضوء وضاح...تضيق المسافة بين البشري والفرسين في ثوان قليلات لا تلبث أن تلحقها ثوان أخريات يتراءى فيها البشري وقد تعدى حجاب الفرسين تاركاً وراءه ريحه تلفح أجساد الخيل.

والدهشة تعلو الوجوه ....قبل أن يصير الأمر عادياً ....عادياً

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

لما بلغ (زارا) الثلاثين من عمره هجر وطنه وبحيرته، وسار إلى الجبل حيث أقام عشر سنوات يستمتع بالعزلة والتفكير، وبعد مناجاة قصيرة مع شمس ذلك النهار قرر (زارا) في سريرته إنهاء عزلته فطفق ينحدر من الجبل فما لقي أحدا..... حتى بلغ الغاب فانتصب أمامه شيخ خرج من كوخه بغتة؛ ليفتش عن بعض الجذور والأعشاب فقال الشيخ في نفسه:

- ليس هذا الرحالة غريبا عن ذاكرتي. لقد اجتاز هذا المكان منذ عشر سنوات ولكنه اليوم غيره بالأمس .... لقد كنت تحمل رمادك في ذلك الحين إلى الجبل، أما اليوم يا زارا فأنت تحمل نارك إلى الوادي ؟ أما تحاذر أن ينزل بك عقاب من يضرم النار ؟

أخذ الحديث زارا والشيخ قليلا من الوقت يتحدثان عن الناس وأحوالهم وحياتهم إلى أن سأل زارا الشيخ عن ماهية عمل القديس في هذه الغابة ؟

فأجاب القديس : إنني أنظم الأناشيد لأترنم بها فأراني حمدت الله كثيراً إذ أسرُ نجواي فيها بين الضحك والبكاء؛ لأنني بالإنشاد والبكاء والضحك والمناجاة أسبح الله ربي .....ومع هذا .... فما هي الهدية التي تحملها لنا ؟ .... فانحنى زارا مسلماً وقال للقديس مسلماً : أي شيء أعطيك ؟ دعني أذهب عنك مسرعاً كيلا آخذ منك شيئاً.

وهكذا افترقا وهما يضحكان كالأطفال

وعندما انفرد زارا قال لنفسه : إنه لأمر جد مستغرب .... أو لم يسمع

هذا الشيخ في غابه أن الله قد مات ؟!

وما إن وصل زارا إلى المدينة المجاروة للغاب ..... رأى الساحة مكتظة بخلق كثير أعلنوا من قبل أن بهلوانا سيقوم هناك بالألعاب فوقف زارا في الحشد يخطبه قائلاً :

- إنني آت لكم بنبأ السوبر مان ..... فما الإنسان العادي إلا كائن يجب أن نفوقه .... فماذا أعددتم للتفوق عليه ؟؟

إن كل الكائنات أوجد من نفسه شيئاً يفوقه وأنتم تريدون أن تكونوا جزراً يصد الموجة الكبرى في مدها ..... بل إنكم تؤثرون التقهقر إلى حالة الحيوان بدل اندفاعكم للتفوق على إنسانيتكم ..... وهل للقرد من الإنسان إلا سخريته وعاره ؟ .... لقد اتجهتم على طريق مبدؤها الدودة ومنتهاها الإنسان ..... إلا أنكم أبقيتم على كل ما تتصف به الدودة .... لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى على أن الإنسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته.

لقد أتيتكم بنبأ السوبر مان .... الإنسان الأرقى..... أنه من الأرض كالمعنى من المبنى ..... إذن فلتتجه طاقاتكم لجعل هذا الإنسان الفائق معنى الأرض وروحاً لها .... أتوسل لكم أيها الاخوة بأن تحتفظوا للأرض بإخلاصكم فلا تصدقوا من يمنونكم بآمال تتعالى فوق الأرض.... إنهم يعللونكم بالمحال فيدسون لكم السم ..... سواء أجهلوا أو عرفوا ما يعملون ...... أولئك هم المزدرون للحياة ..... لقد رعى السم أحشاءهم فهم يحتضرون ..... لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها

لقد كانت الروح فيما ما مضى تنظر للجسد نظرة احتقار فلم يكن

حينذاك من مجد يطاول عظمة هذا الاحتقار ..... لقد كانت الروح تتمنى الجسد ناحلاً قبيحاً جائعاً متوهمة بذلك أنها تتمكن من الانعتاق منه ومن الأرض التي يدب عليها..... أتعلمون الآن من هو السوبر مان ؟

وهل تتوقعون حدوث معجزة أعظم من معجزة الإنسان المتفوق؟ .... لقد آن الأوان للاحتقار أن يبلغ أشده فيكم ..... بعد أن استحال شرفكم ذاته، كما استحالت عقولكم وفضائلكم إلى كره واشمئزاز

لقد آن الأوان أن تقولوا : ما يهمني شرفي وإن هو إلا مسكنة وقذارة وغرور في حين أن على الشرف أن يبرر الحياة ذاتها.

لقد آن لكم أن تقولوا : ما تهمني فضيلتي فإنها لم تصل بي إلى الاستغراق ولقد أتعبني خيري وشري وما هما إلا مسكنة و قذارة وغرور

لقد آن لكم أن تقولوا : ما يهمني عدلي أن العادل يقدح شرراً لا تشتعل.

لقد آن لكم أن تقولوا : ما تهمني رحمتي _ أفليست الرحمة صليباً يسمر عليه من يحب البشر ؟؟ ورحمة لم ترفعني من على الصليب.

أقلتم مثل هذا أو ناديتم به من قبل؟

إن ما يرفع عقيرته إلى السماء إن هو إلا غروركم لا خطاياكم _ إن هو إلا حرصكم حتى في خطاياكم.

أين هو ذاك اللهب الذي يمتد إليكم ليطهركم ؟؟ أين هو الجنون الذي آن أن يستولي عليكم ؟؟

هأنذا أنبئكم عن الإنسان الفائق _ السوبر مان

وما إن أنهى زارا حديثه حتي خرج أحدهم من الحشد صائحاً : لقد

كفانا ما سمعنا عن البهلوان ..... فليبرز لنا الآن لنراه

فضحك الجميع مستهزئين بزارا ..... وتقدم البهلوان ليقدم ألعابه وهو يعتقد أنه كان موضوع الحديث..... يفرك (جاك) عينيه واضعاً عويناته جانباً للمنضدة التي امتلأت بالكتب المتراصة في غير نظام ...... يغلق دفتي الكتاب ويضعه على إحدى قمم الكتب المجاورة له.

شريط ذاكرته من هذا الكتاب الذي قرأه ما يربو على مئات المرات ولكنه يرجع له تارة أخرى .... هكذا تكلم زاردشت ..... فريدريك نيتشه ..... لا يدري لماذا يذكره نيتشه بفيلسوفه الوطني (سارتر) .... رغم التباعد الظاهري الواضح في مبحثهما الفكري والفلسفي إلا أنهما يتشاطران ما يدعونه (القلق الوجودي) و (الهم المعرفي) مع اختلاف أنموذج حياة كل منهما، فنيتشه المفكر الألماني وعالم اللغويات والشاعر الذي اضطرته ظروف مرضه وضعف بصره للركون للعزلة والتوحد كان مساره الفكري المؤمن بصيرورة التطور نحو المخلوق الأسمى الذي سيفوق الإنسان يوماً ما عبر رصده الفريد لبزوغ نجم الإنسان منذ ٣٠٠ عام على يد ديكارت وموت ميتافيزيقا الألوهية عموما من الخطاب الفكري الغربي ..... ولكن سارتر وُضع أكثر من سابقه على محك تجربة الواقع المعيش ..... منذ انخراطه وهو الروائي والمسرحي والفيلسوف في صفوف المقاومة الفرنسية حينما احتلت ألمانيا النازية فرنسا مرورا بميوله السياسية الاشتراكية ونبذه للاستعمار ومقالاته في نقد السلطة..... أضف إلى ذلك اهتمامه بعلم النفس التحليلي الذي أثر عليه بقدر كبير كروائي ومسرحي .....الوجود والعدم ... الغثيان.....الغرفة .....الجحيم ..... الأبواب المغلقة.....

تلك الليالي الأخيرة في حياة جاك الحافلة لم تكن تخبىء أي إثارة سوى جفاف حقائقه العلمية .....المصادفة والضرورة ..... كتابه الذي أثار ضجة في وقته سرعان ما اهتضمتها الأوساط الثقافية الفرنسية... سارتر ونوبل في الآداب .... عام ١٩٦٥ كان عاماً مجيدا له ، ففي ذاك العام حصل هو وزميلاه فرانسوا جاكوب و اندريه لووف على نوبل في الطب نتيجة لأبحاثهما في المعهد الذي أسسه جاك نفسه ،، معهد (باستور) .

ıııııııııııııııııııııııııııııııııı

-١٢-

لعبة النرد أو الروليت يعتمل فيها كلمة الصدفة ، غير أن الألعاب الميكانيكية المحضة ليست من الصدفة في شيء إلا بسبب عدم التحكم عملياً ،،، والأمر كذلك أيضاً بالنسبة لنظرية تتعلق بظاهرات عدة حيث يصير لاستعمال مفهوم الصدفة وحساب الاحتمالات أسباب ،،، أسباب محض منهجية ، هذه هي الصدفة الإجرائية أو المنهجية ، غير أن الصدفة تتخذ معنى جوهرياً وليس فقط إجرائياً ،،،، تلك هي حالة ما يمكن أن نطلق عليه اسم (التزامنات المطلقة) ،،، أي الحالة التي تنتج عن تقاطع سلسلتين سببيتين مستقلتين عن بعضهما البعض استقلالاً تاماً ،،، لنفرض مثلاً أن الطبيب (دوبون) قد استدعي على عجل لزيارة أحد المرضى بينما السمكري (دوبوا) يعمل على إصلاح سقف مجاور، وفي اللحظة التي يمر الطبيب بأسفل المبنى الذي يعتليه (دوبوا) تقع المطرقة من يده سهواً التي تتقاطع وخط سيرها الحتمي مع خط سير الطبيب الذي يموت بسبب كسر في الجمجمة ،، نعبر عن ذلك بقولنا إن الحظ لم يحالف الطبيب ،،،، أي تعبير آخر يمكن استعماله في حالة كهذه غير متوقعة بطبيعتها ؟؟

إن الصدفة هنا يجب اعتبارها جوهرية تماما وملازمة للاستقلالية الكاملة لمجموعتي الحوادث اللتين سبب التقاءهما الحادث.

حقيقة أن بين حتمية حدوث طفرة في تعاقب الـ DNA ،،، وحتمية نتائج تلك الطفرة الوظيفية على مستوى البروتين لا يوجد سوى (تزامن مطلق) بالمعنى المحدد أعلاه بالقطع المكافىء للسمكري والطبيب ،،، يبقى الحدث إذن في نطاق الصدفة الجوهرية.

جاك مونو ،،، من كتابه (المصادفة والضرورة) و بتصرف

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-١٣-

(مكتوب لك أنفاس ع الجبل يا دكترة) –

أبتسم لطريقة تفكيره وأنا أكركر مع شيشتي....مكتوبلي أنفاس..؟؟.....هنالك خلف اللاخلف يمكث خالق الخلق وأمامه خمسة تريليونات شاشة تتابع قصة كل إنسان منذ ميلاده....شاشتي وفيلمي السينمائي المسجل قبل ميلادي مُسجل عليه بالكتابة الضوئية مشهدي وأنا جالس على حصيرة القش فوق مرتفع وادي الموتى والشيشة تلف بيننا....يا دكترة....كل شيء مكتوب....كله قسمة ونصيب....وأنت تجري يا ابن آدم جري الوحوش غير رزقك لن تحوش.....إنه وربك لحق كما أنكم تنطقون.........المشكل الأبدي الذي تلافاه البعض جبناً أو كسلاً أو تغافلاً...وتناوله البعض فمنهم من وصل لأريحية ما تعينه على إكمال طريقه بالتوفيق بين سماء مدون فيها كل خائنة أعين و أرض قدست

معنى الفوضى....ومنهم من قضى نحبه حائراً ....أنحن أحرار .....أم أن مكتوبلك أنفاس ع الجبل يا مقبرة؟...حتى الممثلون على خشبة المسرح وإن حفظوا أدوارهم من نص معد مسبقاً فإن لهم بعض الحرية في الخروج عن النص فاتحين باباً لحرية الإبداع ...إبداع الحركة البشرية لا يمكن أبدا تخيله سجين سيناريو مرسوم أزلاً.

يدنو الليل..والنجوم في سيوة شتاء تبدو كاللؤلؤ المنثور الكثيف على سقف السماء....أخرج التليفون المحشور في جيبي الجينزي الضيق.... فلتهجرني أيها الشعر وألا قتلت قلمي وأكتب ،،، وأكتب :

أنا ؟

لا تسلني من أنا.....فعلمي بذأتي كجهل احمرار دمائي

.....كقدر رِماح الضوء في مسيرة الأزل من مصباح مقطورة مقلوبة على طريق سريع ...عبر فلوات السموات

صمتي .....

......شتاتي

....حريتي المقبورة في بئر الكلمات

.....أراني في لوحة تعبيرية

....قصيد سيمفوني

....براءة ابتسامة طفل في ريعان حلمه

.....فقط أراني...ولا أعرفني

فقط أراني ....ولا أعرفني

-١٤-

تخطلت بشبق غرفتي ....شقاق غربتي،،، سوناتا بيانو وفيولينا لموزارت ،،، أنا ؟ ...موسيقى الحجرة

ولكنه ما كان أروع الصيف وقد أيقظه شجن الشتاء....إلهي ...أما آن الأوان؟،،،، كل الأجواء تحدثني بقصيد شتوي حزين،

.....أطلق الرياح عبر السهول المشتاقة لريعان ليال خوال

...أمنح حريتك للأعناب المتقاعسة بالنضوج....يومين شرقيين لا أكثر يا إلهي...لحلاوة النبيذ الثقيل

أنا ؟

قلقا أجوب المدينة الرمادية باحثاً عن قصيدي الضائع.... لعله يرسو أزلاً في ميناء عينيك البندقيتين....حيناً فوق تويجات النرجس ..لعلها كلمات تنبت شِعراً يسمو بشجيرات عقل مدينتي النائمة تحت رماد الكبت والكهانة شجراً وارفاً يستطيل .....

يتراءى حرية وخلود

آه ه ه....أنا؟

-١٥-

أنر مصابيحك ... انتبه ....فقد فقد العالم بريقه.....

مجهال قريش لن يخلق جناح بعوضة ..

نيتشه لا يحظى بحديث ودود بمرافقة كؤوس فودكا باردة مع ابن المغيرة وحيد زمانه.... كالموت ....

فقط.... لقد التقى قرد بابون عجوز مع فهد ثلجي أمهق بداخل زنزانة تتوسط مسرح روماني .....

زخم الأحداث يثير الفوضى ....ما أحلى الفوضى وقد جمعت التاريخ بلا زمن.....تاريخ بلا زمن ؟ ....الفوضى وقد جمعت النقائض لتتكامل وتتفاضل ....في تاريخ بلا زمن

ااااااااااااااااااااااااااااااااااا

-١٦-

يهوذا وعيد الصلبان الصدئة يشتعل مع الشيخ عيد في قطار الصعيد....

آخر أيام المواعيد

عيد الصغير يبتهل نحيباً شجياً لمضي العيد

الميعاد الذي اغتال الفرح وعروض مسرحية .... تتصادف أم تتفق ؟ (قهقهة) ... فقط لانكشاف جرح

... وولادة قرح

والكهنة والمطبلاتية وحاملو أعلام العيد غافلون مغفلون

....قبل فوات أوان ،،،، تلكم لحظات الانتباه
أنا ؟

قال لي : أنر مصابيح دواخلك ....فالطوفان آت ....اختر ما بين موات وحياة

أن تحيا كترس لساعة حائط معطوبة ... أو ....أو تحيا فارس عقل متأملاً ماضيا مجدولا بأن كثيبا ملتهبا تكاد ناره تأكل قادم اللحظات.

|||||||||||||||||||||||||||||||||||

-١٧-

مكتوبلك أنفاس ع الجبل

الأيام الأخيرة قبل أن أنهي خدمتي كضابط احتياط بالجيش المصري......عضو أنا مع لفيف اللجنة التفتيشية الموقرة للتفتيش على أحد لواءات الدفاع الجوي وكتائبه.....إحدى تلك الكتائب ترتكن علياً فوق قمة جبل درنكة بأسيوط....بصفتي طبيبا فمهمتي التفتيش على

الخدمات الطبية التي تقدمها الكتيبة إلى أفرادها ....من فوق الجبل تمكث مدينة أسيوط ليلاً بأنوارها وأنا أتأمل بانطباعية ذلك المشهد وبجانبي طبيب الكتيبة الذي قد انهيت التفتيش عليه يقف ساكناً محترما، صمتي كمفتش وضابط، ثم لا يلبث أن يقطع الصمت بجملته التي علقت في أذني...التكرار....قائلاً : مكتوبلك أنفاس على الجبل يا دكتور.

أنظر له مبتسماً وبالطبع لا يفهم معنى ابتسامتي الدقيق....مكتوبلي أنفاس كتلك التي كتبت على فوق جبل الموتى بسيوة منذ ما يقرب الثلاثة الأعوام؟.. أهذا ما يدعونه إجبار التكرار؟؟ ،،، أم ماذا؟،،،، .أرفض أن أتصور أن كل حياتي مكتوبة من قبل ميلادي..أرفض هذا بشدة...أوافق أنه ليس للإنسان إلا ما سعى...وأن سعيه سوف يرى...أتفق مع تلك الرؤية....ما قيمتي كإنسان إذا ما آمنت بأن كل فعل أرتكبه هو من فعل الله، وما أنا سوى تجربة مروية سابقا يشاهدها رب عاطل من جديد وهو يحتسي شرابه من فوق عليائه؟؟...ما قيمتي ؟؟....أتذكر قولة المعتزلة: أن كيف يكتب الله في قرآنه الأزلي تبت يدا أبي لهب وتب قبل أن يولد بملايين السنين؟؟....ألا تقتل تلك الفكرة المترسخة بأعماق مسلمي اليوم صفة العدل الإلهي من أساسها ؟؟....يخطفني الجندي الطبيب من أفكاري عازماً علي بسيجارة مارلبورو أحسبه قد اشتراها تحسبا لمفتش يعشق الدخان مثلي....يأتي عسكري من الخلف منادياً علي ومنوهاً أن بقية أعضاء اللجنة قد انتهوا بدورهم من التفتيش....أودع الجندي الطبيب بحفاوة وأتركه راكبا الباص العسكري متجها للأقصر استعدادا لإنهاء آخر مهماتي العسكرية كضابط وقافلا إلى الإسكندرية وطني...إنه ذاك

الميني باص الأزرق الفاتح والسادة الضباط من مقدمين وعقداء يحتلون الكراسي الأمامية كما هي عادة الجيش في المواصلات العسكرية...... يحكي أحدهم عن جبلين في إحدى مناطق مطروح أو سيدي براني..... لا أتذكر تحديدا فقد كنت شديد الإرهاق ....فقط عيناي معلقتان على شوارع المدينة الصعيدية، وقد غزتها المدنية متأملاً البنوك المتراصة والعمارات الشاهقة والميادين ......و أذني مع الجبلين.....سحابة.... وظرافة.....جبل سحابة وجبل ظرافة.....هي جبال يحتل سفحها كتائب للجيش، ولتوصيل المياه إلى أفراد الكتائب القاطنين فيها كان الحمار هو الوسيلة المثالية للصعود لسفح الجبل نظراً لانخفاض كفاءة عربات الجيش المضعضعة وعدم قدرتها على اعتلاء السفح الجبلي.. ... فكان الحمار المسكين هو الضحية......كل يوم ينزل الصول (عمر) مع الحمار المنكوب الساعة السادسة صباحاً؛ ليحصل علي حصته من المياه من مستودع ما للمياه ويحملها على ظهر الحمار ويقفل راجعاً إلى أن يصل إلى بداية السفح الجبلي، والعرق قد بلل ثيابه وجسده السمين ليمطتي الحمار الذي سبق وحمل الماء.....المطلوب الآن أن يصعد الحمار عبر السفح المنحدر إلى الكتيبة عبر مدق صاعد طوله ثلاثة كيلومترات حاملا الماء والصول عمر كالفيل الذي يمتطي فأراً......وعبر سنوات خدمة الحمار ظل الحمار صابرا محتسباً لعمله إلى أن جاء صباح كئيب والحمار يحمل الماء والصول السمين في رحلة الرجوع الأليمة.....يغشى الصول (عمر) النعاس مع التعب اعتمادا على حفظ الحمار للطريق.....يقف الحمار لوهلات ربما ليلتقط أنفاسه ....ترتعش أذناه الطويلتين لتكادا تقتربان من لمس بعضهما البعض....إنها بشائر رياح الشتاء....حيث

يقل مجهود العمل بفعل برودة الجو....يتحرك الحمار خارجاً عن طريق المدق، وكأنما أمر قد أتاه بالتحرك في ذلك الاتجاه من قائد مجهول..... يرى جرف الجبل يقترب ولكنه يستمر في مواصلة الهرولة ..... يسرع الحمار في طريقه نحو جرف الجبل ليستيقظ (عمر) والحمار على بعد خطوات قليلة من الجرف....لا تكاد الكلمات تخرج من حنجرته ويكون الحمار قد طار قافزا نحو الهاوية .....إنها حدوتة انتحار الحمار والتي وإن كنت لا أعلم مدى دقتها وحقيقتها ولكنها قد غيرت من وجهة نظري في عبارة ما كنت دوماً ما أرددها ... وحده الحمارالذي لا يحاول الانتحار طوال عمره.....ولكن ذلك الحمار الثائر قد أدار ذهني طويلاً.

ولكن حقاً أكثر ما كان يشغل ذهني تلك الأيام بجوار أحلام ما بعد الجيش وعودتي لمدينتي الفقيدة هو مسألة القدر ،،، القضاء والقدركما يدعونه،،،مجمل معارفي حول ذلك القدر من قراءتي المتأنية الطويلة في تلك الفترة أثبت لي ربما أن أهل الإسلام الحاليين أو ما يطلقون عليهم أهل السنة والجماعة هم نتاج فكري لمدرسة إسلامية أصيلة تدعى (الأشاعرة) ،،، أبا الحسن الأشعري ،،، قال إن أفعال العباد مخلوقة لله ، وليس للأنسان فيها سوى اكتسابها ، أي أن الفاعل الحقيقي هو الله ، وما الإنسان إلا مكتسب للفعل الذي أحدثه على يدي هذا الإنسان ، والكسب هو تعلق قدرة العبد وإرادته بالفعل المقدور المحدث من الله على الحقيقة، بل حين يواجه الأشعري مشكلة خلق الله لأفعال الشر فإنه يقول في كتابه (اللمع) :(إني أقول إن الشر من الله تعالى بأن خلقه شراً لغيره)،،، بل يتكلم بغرابة أحد أشهر تلامذته وهو الباقلاني عن أن غلاء الأسعار هو

من فعل الله تعالى الذي يخلق الرغائب في شرائه ويوفر الدواعي على احتكاره !! ،،،،الإنسان لا يستطيع باستطاعته بل يستطيع بغيره ، لأنه تارة مستطيع وتارة عاجز، كما يكون تارة عالماً وتارة غير عالم ، وتارة متحركاً وتارة غير متحرك ، فوجب عليه أن يستطيع بمعنى غيره ،،، ولكن غيره هو الله وتم قفل القضية في معناها الجبري القدري وتواصله الاتكالي عبر أجيال من أهل السنة والجماعة تلوها أجيال إلى أن وصلنا بالعامية الحديثة إلى صورة نهائية تتمثل في أن كله قسمة ونصيب ومكتوب على الجبين بدلاً من كتابته على اللوح المحفوظ ،،، تتجه قراءتي نحو المعتزلة ، وهم أكثر الفرق الأسلامية خلافًا مع الأشعرية إذ تنفي عن الله خلق الأفعال الشريرة وأنها تأتي من الإنسان نفسه ، بمعنى أعم أن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله وعلى أساسها يحاسبه الله يوم القيامة وإلا ما معنى الثواب والعقاب والحساب إذا كان كل شيء مقدورا ومكتوبا سلفاً ؟ ! أتصور أن الفكر الاعتزالي لو سيطر على المناخ الفكر الديني في تلك الأيام التي وجد فيها الرعاية من بعض الخلفاء كالمأمون لكان لذلك تأثير هائل ؛ لأن فكرة خلق الإنسان لأفعاله لا تختلف عن الفكرة الأولى للتنوير الغربي حول الإنسان وقيمته ككائن أسمى يتمتع بالحرية في تقرير أفكاره وأفعاله وحياته، و إن دهست فكرة الحرية الغربية الأديان تحت أقدامها المهرولة حاملة سلاح العلم ، ولكن الفكرة الاعتزالية التي تبناها كثير من مفكري الإسلام المعاصرين لهي تتمتع بنفس القدر من توفير الحرية ونبذ الاتكالية تحت إطار ديني لا ينبذ المقدسات تحت مقولات أنسنة الوجود ،،، جو فكري ديني راقٍ لم تشأ اعتباطية التاريخ ورغبات الخلفاء والولاة ولو تصادفياً في دعمه فنتج هذا الجو الديني السلفي القدري المُسيطر ،،، وكما

شاءت المصادفة في اكتشاف البنسيللين، والكشف عن إمكانية مهاجمة الميكروب بأجسام مضادة له فاتحة المجال أمام رحاب لعلوم طبية أوسع، فقد تقرر المصادفة نفسها كبريات أحداث التاريخ ،،، إنه الانفصال ،،، التشتت ،،، العدو اللدود للتاريخ المتصل والذي حافظ على اتصاله أسطورة الإنسان الواعي المريد المسئول تفادياً وتعامياً عن أن الزبد ربما لايذهب جفاء ، وإن ما ينفع الناس ربما لا يمكث في الأرض.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٨-

بين كراسي القطار أبحث عن المقعد رقم ٣٧...عربة القطار الخالية التي ستصبح بعد قليل مليئة بالمسافرين ...بعض الفتيات يلعبن بالورق... الشايب... ويبحثون عن حكم مناسب للخاسرة التي بقي الشايب بيدها....أوقظي أحد النائمين بالقطار.. كان هذا هو الحكم...أفتح عيني عندما أسمع الحكم...أنا أقرب نائم لها ولست في حالة تسمح لي بهذه الدعابات الثقيلة....أخرج من جيبي تذكرة القطار بلا سبب أتأملها.

سكك حديد مصر

من الأقصر

إلى الإسكندرية

درجة ثانية مكيفة

بيان التذكرة : نصف ضباط ذهاب فقط

السعر : ٠٠ : ٠٠

أذوب لوهلة في ألوان التذكرة الباهتة .... يقطع شرودي نغمات مؤلفة لتلك المغنية التي لا أتذكر اسمها ولا أتذكر حتي اسم المسلسل الذي غنت فيه تلكم الأغنية.... ألتفت خلفي حيث ينبع الصوت.... لا أميز مصدر الصوت بدقة.

أمبارح ...اللي عدي ...واليوم كمان

لمحة عين في عمر الزمااان

آه إنه لمحة عين في عمر الزمن .... آه ..... أترك إرهاقي يغلبني ويثقل أجفاني ليغلبني النعاس.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٩-

بعد ١٢ ساعة أصل للإسكندرية....أدلف إلى منزلي والإرهاق يحوم حولي ...ألقى أمي الباسمة وقولها : حمدالله بالسلامة يا باشا...أبتسم لها بوهن راداً : باشا مين بس.....أخلع عني بزتي العسكرية وألقيها بإهمال

مقصود وأسرعِ وراء أمي المتجهة نحو المطبخ لأخبرها بجوعي الشديد، وأقف مستنداً على باب المطبخ وأحكي لها بعضا من رحلتي الأخيرة مع الجندية في الصعيد و هي تستمع باهتمام....أصمت لدقائق ألتقط خلالها بعض شرائح البطاطس المقلية....أقترب من أذن أمي هامساً برقة : أمي... إنهم يحاولون كسري.....ترد بحسم أعجبني : متسمحلهومش ...أقبلها وأنكب على الطعام بنهم .....أنزلق بجسدي تحت غطاء فبراير وأغمض عيني...تنساب المعاني بين جهات عقلي المرهق،،، ....لا أستطيع مغادرة مكاني الدافئ هذا فألتقط تليفوني وأستخدمه كمدونة ..... سأكتب هذه الكلمات وأرتحل نائماً....

أمي..إنهم يحاولون كسري

عقلي ينبض على المحك وهم يحاولون كسري

ترددين دوماً أن الله حي لا يموت

.... ولكنه سديم يأسي أيضاً لا يموت

ذاتي والآخرون وذاته....هذا أكثر مما يتحمله عقلي

عقلي ينبض على المحك

ولا ينفك

....ينبض

إنهم يسرقون ريع الله

وآخرون من خلفهم يشترون ما آتاه

وأنا ؟؟....في المنتصف

أصرخ... ألتاع...أمااااه

إنهم يسرقون الله... ولا أراه

يحاولون كسري... ولا أدري

أذات الشوكة قدر الحالم ؟

أقدر أن أولد وبين حدقتي استفهام...وأموت وبين يدي تعجب ؟؟

أسديم يأسي نبوة ؟

هأنتِ متفائلة كعادتك ...تبتسمين؟... أعشق ريح فيكي (أبتسم بدوري)...وأتركني....أتركني في التحامي بحضنك

الآن قلبي لا يبكي

...فقط يرتعش كموج المحيط

وتتحقق النبوءة...وما اسطاعوا كسري

وما اسطاعوا كسري

خخخخخخخخخخخخخخخ..............اهتزاز التليفون تحت وسادتي الدافئة يتسلل إلى نومي الهاديء بلا أحلام..... تنسدل أناملي التائهة لتسحب التليفون ....أفتح عيني بتثاقل.....صديق يسأل

عن أخباري ونثرثر قليلاً وأنا مازلت تحت الغطاء... ..نتفق على المقابلة مساء....أنهض بنشاط غير متوقع في تلك الأيام الشتوية ....أترك الماء الدافئ يدغدغ خلاياي ثم أرتدي ملابسي وألحق بالعيادة.....لكنها أول أيامي مع الطب بعد إنهاء ثلاث سنوات من الظبوطية في الجيش المصري ....العيادة التي تأجل افتتاحها أعواماً ....الآن تفُتح أبوابها ونوافذها.... على الآخر.....وكما تردد أمي الطيبة... «اسع يا عبد وأنا أسعي معاك».

ساعتان مرتا ببطء مع نغمات البرنامج الموسيقي .... وحالة مرضية لامرأة تشكو الجيوب الأنفية حتى جاء صديقي الذي يذكرني وجهه بضربات فرشاة الانطباعيين....هؤلاء الرسامون وألوانهم التي تبهر العين وتفضح جمال الأشياء....انطباع شروق الشمس....**soleil levant** ... أولى اللوحات الانطباعية لكلود مونيه ومنها اشتُق اسم انطباعية..... وجهه يذكرني بانطباعية فان جوخ في رسمه لبورتريه لنفسه....إنه بورتريه يلقن التاريخ درساً في كيف يرى الفنان نفسه وكيف تعلوه ألوان لربما تكون أكثر واقعية من الواقع ذاته....فوق الواقع ....كانت الانطباعية هي بالصدفة التاريخية، الأم للتكعيبية والتجريدية وربما السيريالية....ما فوق الواقعية.

ولكنه فان خوج ...هو من يخاطب روحي هذا الشتاء ..كان يكره الشتاء لقتامته وبرودته ويعشق الصيف وزهوه وشمسه ودفأه....لو لم تكن يا فان هولندياً لوددت أن تكون سكندرياً...وقتها حتما كنت ستعشق

الشتاء عشقاً قد يروي ظمأ الإسكندرية لريشة مثل ريشتك . ... نوبات الاكتئاب التي كانت تتعاقب كثيراً على جوخ وأكثرها شتاء كانت تلجئه أحيانا للذهاب للمشفى، حيث كان يمنعونه من الرسم ولكن الأطباء رأوا أن اكتئابه يتحسن مع ممارسته لهوايته ....غوايته...الرسم. .....خلال شفائه من إحدى نوبات اكتئابه في شهر يونيو رسم جوخ إحدى أعظم ضربات فرشاته ...(ليلة مضيئة بالنجوم)..لوحة محيرة ترى فيها النجوم شموساً والسماء أمواجا.....إنها ليالي فان جوخ.

نجلس وصديقي انطباعي الوجه على المقهي المطل على شارع ٤٥. بعد إنهائي لعملي في العيادة ٤٥ ...إنه شريان من شرايين مدينتي الإسكندرية...ولعله المكان الأجمل...لعله ليس الأجمل ولكنه الأقرب نظراً لما يحمله من ذكريات وشجون أعوام من السكنى و الألفة و الاعتياد ...والغربة والارتحال عنه والرجوع إليه...إنه جزء مني.... رغماً عني.

أفكر في أن أفاتح صديقي في موضوع وجهه الانطباعي ولكنه يسبقني بثرثرة سريعة عن فتاته وأختها (الحربؤة) التي لا تضجر من مواصلة التنكيد على أختها الصغري وعلى كل من تجده في طريقها ،،، أحيانا يصبح ذلك داء عضالاً.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

- ٢٠

صديق آخر هو الأقرب إلى عقلي وليس قلبي ، أستأنس بحديثه ولغته وثقافته العريضة وبالطبع بكتابته للشعر ، هو أيضا زميل في الطب يصغرني بعام ، حصل على إعفائه النهائي من التجنيد وانخرط في دراسة الطب النفسي ، وهو قرار ليس بالسهل نظراً لهامشية دور الطبيب النفسي في بلادنا، أثناء عملي كضابط كانت بيننا مكالمات هاتفية قصيرة يسأل فيها كل منا الآخر عن أحواله ، يود لو امتدت المكالمة حيناً ،،، كنت أشعر هذا في صوته ،،، لكن اكتئاب الحبس الاحتياطي الضبطوي كان يخلعني بغيرة للاستمرار في التواصل معه ،، يصغرني بعام وها هو على مشارف إنهاء ماجستيره في الطب النفسي ،،، بعد انتهائي من حياة الجيش الرتيبة لجأت إليه ، كنت دائم الزيارة له والخروج برفقته ، أستأنس بوجوده ، أتذكر محاولاتي لإقناعه بالتحليل النفسي وأهميته في دراسته للطب النفسي وفي الأدب والشعر أيضاً ،،، كنت وكيلا للدفاع عن فرويد ،،، وشرح بعض مقولاته مع جاك لاكان وكارل ج يونج وآخرين،،، هو بالطبع كان ضد فرويد ،،، كان ضده بفعل لاوعيه الثقافي الجمعي الذي يكره فرويد وماركس وغيرهما ،،، فأنت لو ساءلت أي مصري عن رأيه في ماركس فلن تجد في الغالب إجابة، وإن وجدت فلن تجد سوى صفات الكُفر والشيوعية ومعاداة الإسلام وفرويد والطفل الذي يستلذ بلعق حلمة ثدي أمه وداروين والأصل القردي للإنسان ،، هذه هي معلومات رجل الشارع عن هؤلاء إن وجدت ، آراء مسبقة مكتسبة من قراءات سطحية ،،،

جلسات المقاهي ،،، أسمار الليل ربما ،،، ولكن رجل الشارع هذا والذي كان منهم صديقي الطبيب النفسي لم يكلف نفسه عناء القراءة الجدية لكتابات هؤلاء الأصلية ،،، ولم التعب ومعاناة البحث مادام الدكتور مصطفى محمود والشيخ الشعراوي وآخرون يضعون لي لحم فرويد وماركس وداروين ميتاً على طبق صدئ؟

أما عن صديقي هذا فقد دفعته دفعاً للتعمق والقراءة في النصوص الأصلية، وكانت لي معه جلسات وشروحات ومناظرات هادئة كانت توضح لي كم هو إنسان متنور متواضع واسع الصدر والعقل معاً ،،،،

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٢١-

عيادتي ،،، بعد الثانية عشرة مساء ،،، الملل يتسرب بخطواته الواثقة. ألملم أشيائي لأغادر ،،، وإذا بوجهه الصبوح وقامته القصيرة ومعطفه المنفوخ يسدون الطريق أمامي ،،،، أغلق باب العيادة ، أطفئ جميع الأنوار عدا نور حجرة الكشف ،، أفتح النوافذ عن آخرها ،،، نثرثر بسخرية قليلاً عن مشاريعي النفسية البراقة ويأخذنا المجون قليلاً قبل أن أهب فجأة من مقامي وأفتح درج المكتب وأخرج سيجارتي الملغومة ،،، جواني الثقيل،،،

- يخرب بيتك ،،، بطل بأة يابني
- بسخرية وخلاعة ،،، بطل أنت تقول لي بطل واشرب معي
- انسَ يا بني ،،، أنسَ
- طيب

أشعل السيجارة بأناقة (الأب الروحي) رافعاً فكي السفلي صوب السماء مستفزاً إياه وأنفخ في وجهه الدخان ،،،، يصمت دقائق يراقبني فيها وأنا أداعب سيجارتي ،،، يبدو أن الدخان السلبي قد أسقط إرادته ،،،، يبدو عليه ذلك ،،، عند منتصف الجوان أمد يدي له بها :

- مساء العسل

يأخذها وعيناه جاحظتان : الله يحرقك يا شيطان

دماغه شديدة الخفة ،،، كنت أعلم هذا عنه مسبقاً ،،، وأحسده عليه أيضاً ،،، بعد ثلاثة أنفاس آخذ السيجارة من يده وأتركه في غيابة الجُب يلتقط بعد شتات أفكاره من بئر المخيلة ،،،،

- لسه بتكتب شعر ؟ (أفاجئه بهدوء شديد)

- آه ،،، أحيانا

- (بخبث ماجن) وأخبار فرويد معاك إيه ؟

يصمت ثواني ويجيب بتقطع : قطعت شوطا كبيرا معه ،، ما بعد اللذة والتابو وموسى والتوحيد وتفسير الأحلام ،،، حاليا أنا واقع في عشق لاكان مثلما تنبأت سيادتك يا عم المتنبي.

- المتنبي ؟!! ،،، الدماغ اشتغلت ولا إيه ؟

- شكلها آه ،،، آآآآه ،،، (وينخرط في قهقهة غير مبررة أغرق معه فيها بلا إرادة وتلذذ ،،،نوبة ضحك لم تستغرق سوى دقيقة بحسابكم أو ربما ثلاث دقائق بحساب بشريان ترتفع نسبة الكانابيس في دمائهم ،،، الكانابيس هو الحشيش والحشيش هو الكانابيس ،،، أتذكر ملاحظتي لمحترف دماغ كيف تجعل مادة الترامادول هذا الشعور يتوازن ،،، ليرجع

الوقت بسرعته الأصلية ،،،

يطول صمتنا لبرهة من الوقت حتى يتسلل لمسامعنا صوت فيروز وهي تترنم مع عيون حبيبها الحزينة وكيف يرجع المساء عبر نافذة ما يسارنا ،،، شتاء مارس يصرصر بالخارج ورياحه عبر ذات النافذة.

أهمس له ببطء:

- تصدق إني ساعات أحس بأن قانون الاستعمال والإهمال ،،، القانون ده بتاع العضو الذي يستعمل وينال رضي الطبيعة ،،، الظروف يمكن ،،، يزدهر وينتشر وينمو ،، أما العضو الذي لا يستعمل وما يعجب الطبيعة يضمر ،،، يختفي (بإشارة يدي اليسرى) ،،،، أحس بالقانون ده ينطبق مع الأفكار ،،، بطريقة ما- الظروف أو بطريقة أخرى الطبيعة - تقف أفكار على رجلها وتلغي تانية بغض النظر عن قيمة الأفكار ده ،،،، القانون ده كمان من درجه قدمه أحس بأنه أصبح جزءا من نفسية الإنسان ،،،، البق مثلا (وأشير إلى فمي) ،،، الفم ،،، كل الناس عايزة تقوي بقها ،،، صراع محموم في حركة دؤوبة لعضلات الفم واللسان والشفايف ترضخ له الطبيعة كعادتها مع الإنسان الذي لجمها،،، شفايف العرب أجمل شفايف في العالم (أتوقف لثوانٍ متأملاً هلاوسي) ،،،، وبعدهم الأمريكان و ،،،، والأوربييون ،،، وأقبح شفايف الصينيون واليابانيون ،،، لا يتكلمون ،،، يشتغلون بس (ثواني لا أتوقع خلالها منه تعليقا) ولكنه يفاجئني بعينين زائغتين:

- أنت عارف طبعاً أني غير فاهم منك حاجة ،،، لو لم أشرب كنت سأفهم ،،، صح ؟

أتمتم بصوت خفيض

- أكيد ،،، أكيد

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٢٢-

- أنت واصل لحقيقة مريحاك ؟؟

يربكني سؤاله بشدة وأضحك بهستيرية وأجيبه على الفور:

- أبداً ،،،، أبداً،،، أنت نفسك ممكن تحس بأن كلما الواحد عرف أكثرزادت حيرته وأصبحت الحقيقة كائنا مشوشا ملغزا يبتعد ولا يقرب،،، تقول لي واصل لحقيقة مريحاك ،، ها هي

يبتسم لإجابتي ويتمسرح بجنون محبب

- كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة

- بالضبط

تأخذنا مراكب الكلام إلى ضفاف بعيدة ألاحظ فيها بالفعل اتساع عمره العقلي والثقافي يحدثني عن (النقل المُبدع) أو (التحويل) في الشعر وأن هناك مقاطع شعرية كاملة قد اقتبست من مقاطع شعرية أخرى ولكن لا رغبة بالسرقة، وإنما بشحنها بموضوع جديد وبمعنى معاصر يلغي هذا (الأخذ) صفة الاقتباس المباشر الفظ أو السرقة إذا شئتم ،، (الانتحال)،،، ما يقابلها في اللاتينية (البلاغيارزم) أو (الابيغونزم)

plagiarism or epigomism

فالشاعر الابيغونزمي لا يكتب شعراً سيئاً فحسب وإنما يقلد بشكل

سيىء أيضاً ولا موقع له تحت قبة الشعر الزرقاء التي يشرحها (لوتريامون) في نظرية الانخطاف وإليك هذا المثل : أنشد الشاعر الألماني العظيم فولفغانغ فون جوتة يقول: «من يأتِ إلى العالم ، يبنِ بيتاً جديداً» وذلك بروح القرن التاسع عشر المتفائلة ، ورد عليه راينر ماريا ريلكة مستخدماً نفس عدد الكلمات ونفس الأفعال ليضفي على القصيدة روح بداية القرن العشرين المتشائمة، فأنشد: «من لا بيت له الآن ، فلن يبني لنفسه واحداً»،،، أضاف ريلكة كلمة (الآن) إلى البيت الشعري، فحول إنسانه أو لنقل فاعله ، إلى إنسان بلا مأوى على مر العصور ، أما ستيفن سبندر فقد اكتفى بنقل كلمة الآن من شطر البيت الأول إلى شطر البيت الثاني ، وهكذا كسر شيئا من تشاؤمية ريلكة ومنح الإنسان فرصة بناء البيت المستقبلي.

من لا بيت له ، فلن يبني الآن واحداً

والوحيد الآن ، سيبقى ردحاً هكذا،

يقظان ، يقرأ، ويكتب قصائد طويلة رائحاً وغادياً في طرق عارية الأشجار

يجوب قلقاً ، حيث تعبث الريح بالأوراق المتساقطة

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

لماذا أنا ،،،، ؟

-١-

أبراج كهربائية وأعمدة متراصة كيفما أنتظم ،،، برجان لاسلكيان يتجاوران يعلوهما مصباح ينبض ضوءاً أحمر لتحذير طائرات الرش الزراعية شديدة الانخفاض من الارتطام بالأبراج ،،، شركة كهرباء الإسكندرية ،،، يندمج العامل الفني في تفكيك وصيانة أحد الديازل ، شمس يناير الدافئة تحنو عليه كي لا يتصبب عرقاً ،،، صباح مثالي للغاية عدا تلك الذبابة التعسة التي لا تغادر وجهه حتى تعاود الهبوط الملتوي فوق أنفه ،،، يلوح (عبد الرحمن) بيده المشحمة عن مقربة من أنفه لتفر الذبابة ثم لا تلبث أن تستقر تارة أخرى لترف فوق جفنه الأيمن ،،، يكز عبد الرحمن على أسنانه كمداً من تلك الذبابة العاشقة ،،، يغمض جفنيه لتفر العاشقة فراراً أخيراً ،،، على غير مبعدة يرى عبد الرحمن زميله الصعيدي الأمهق يحمل بعض المعدات ملوحاً له بالتحية ،،، يرد عبد الرحمن التحية باقتضاب مصطنعاً الانهماك في تزييت ماكينة الديزل وما أن يختفي زميله بداخل إحدى البنايات حتى يترك عبد الرحمن زيوته وشحومه ويبتسم بداخله برضا، وسرعان ما تخرج ابتسامته على شفتيه ويخرج التليفون ليتصل بزوجته التي سافرت و طفله منذ يومين إلى أهلها في الصعيد لزيارتهم، ولم يستطع مرافقتها نظراً لظروف عمله الشاق،،، هي أخت ذاك

الزميل الأمهق ،،، وإن كانت ليست من المُهق،،، هي فقط بيضاء كالثلج،،، زوجها زميله إياها بعدما أحس منه حسن الخلق والرجولة والتدين ورُزق عبد الرحمن منها بطفل ما زال يحبو في شهره العاشر ،،،، (الهاتف الذي تحاول الاتصال به مغلق أو غير متاح) ،،، يعاود المحاولة،،، (الهاتف الذي تحاول) تزداد وطأة الشمس بشكل فجائي ليتصبب عبد الرحمن عرقاً وتوترا ،،، يعاود الاتصال ليأتيه الصوت الأنثوي البارد كالموت (الهاتف الذي ،،،،،،،،،،،،،،،،)

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٢-

دبلوم صنايع ،،، سكنه شديد التواضع بـ (العوايد) ولمن لا يعرف العوايد فهي إحدى مناطق الإسكندرية الشعبية الحديثة نسبياً ،،،، تبدو وكأنها جنوب الإسكندرية وصعيدها الجواني ،،، مسكنه شديد التواضع والقدم ،،،، تلك المنازل التي تميزها رائحة ما ،،، رائحة الفقر ربما رائحة غريبة ربما تبدو كمتلازمة في أي منزل يسكنه الإنسان والفقر.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٣-

يكرر عبد الرحمن الاتصال بزوجته ولا من مجيب ،،، يقرأ الفاتحة والمعوذتين ويفتش عن تليفون المنزل لوالدة زوجته في المنيا ،،، دوار ما ينتابه ،،، ينسحب من تحت اللهب الشمسي التي لفحت وجهه ليستظل داخل ورشة مجاورة

- آلو ،،، ألوو ،،، أيوة يا حاجة ،،، أنا عبد الرحمن ،، كل عام وأنت

بخير ،،،

- عبد الرحمن ،،، أزيك يا بني ،،،

مقاطعاً - هي (عيشة) عندك ولا ركبت ؟ ها ،،،؟

تستوعب حماته السؤال في ثوان ثقيلات ،،،

ركبت من بدري يا بني ،، زمنها في القطر ،،،، لسه مكلماها قبل متركب،،، كلمها ع الموبايل يا عبد الرحمن.

- ركبت قطر كام ؟

- قطر ٦

- حاضر يا حاجة ،،، أيوه حكلمها ،،، مع السلامة

يغلق الخط دون أن يسمع سلامها ،،، والدوار ،،، الدوار ،،، لم يأته من زمن طويل إلا مرات معدودة ،،، ورثه عبد الرحمن من الطفولة ،،، كان يضايقه حينها ،،، ذات الدوار ،، والقلق ،،، ذات الذبابة اللزجة أو غيرها،،، الكل يدور في فلك دائخ حول رأسه.

ااااااااااااااااااااااااااااااااااا

- ٤ -

لا شيء مما سبق ،،،

يستثير الغرابة ،،،

ولا حتى الذبابة

ربما عزفت لحنًا ما في قصيد سيمفوني لابن آدم وهو يجن ،،،، راح (عبد الرحمن) يهش ذبابة وهمية عن وجهه والقلق غير المبرر يقتله ،،،

ربما فصل شحن ،،، ربما سُرق ،،، ربما ضاع ،،، ألف ربما ،،، ولكنه كان قلقاً ،،، دلف إلى حجرة رئيس العمال مباشراً وأستأذنه بعد أن حكى له باقتضاب ونفاد صبر عن اتصاله بزوجته وتليفونها المغلق ،،، أذن له الرئيس واتجه (عبد الرحمن) إلى محطة مصر ليسأل عن مواعيد قطارات الصعيد العائدة اليوم.

هو الآن يجلس في المحطة والناس حوله جيئة وذهاباً، وقد أصبح الهاتف جزءاً من أذنه. الهاتف الذي تحاول الاتصال به ربما يكون مغلقا أو غير متاح ،،، الساعة الرابعة عصراً ،،، ساعتين وتصل بإذن الله ويتمتم بأدعية ما ،،، برودة الجو جعلته يخفض من أكمامه وينكمش ،،، يلاحظ اضطرابا ما في حركة عمال وموظفي المحطة ،،، قلقه الطاغي يفوق اضطرابهم فلا يعيرهم انتباهاً وينظر نحو امتداد شريط القطار الذي ينتهي عند أفق قريب ،،،، ينتظر ،،، وينتظر ،،، (حادثة) ،،،تلتقط مسامعه تلك الكلمة ،،، (حادثة) ،،، فيلقي بكامل سمعه نحو حديث ثنائي بين رجل وامرأة يقفان بالقرب من مقعده الرخامي.

- آه بيقولوا في حادثة في الصعيد ،،، جرار القطر شكله ولع

لا إرادياً يتطفل عليهما ،،، بمظهره الشعبي المتشحم ووجهه الذي اتشح ببعض بقع الزيت- يوجه حديثه للرجل-

- حادثة ؟ هو فيه حادثة

- آه ،،،،، رئيس المحطة يقول مواعيد قطارات الصعيد ستتأخر لأن هناك قطارًا جراره ولع بس الركاب سُلام ،، الحمد لله

يتمتم عبد الرحمن ذاهلاً - الحمد لله ،،، الحمد لله

يخرج عبد الرحمن التليفون ويحاول ولا من مجيب ،،، يغلق عبد الرحمن الباب ،،، بعد أن اضطربت معدته يتسلل إلى دورة المياه ويخلع سرواله ويغلق الباب.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٥-

مصرع ٣٧٣ في حادثة احتراق قطار بالصعيد

وقد أمر الرئيس حسني مبارك بسرعة إتمام التحقيقات؛ للتعرف على أسباب وقوع الحادث المفجع، الذي تابعه فور حدوثه، وأجرى عدة اتصالات مع كبار المسئولين. كما يتابع الرئيس مبارك حالات المصابين، وأصدر تعليماته بتوفير كل الإمكانات لعلاج الحالات الحرجة، ونقلها على الفور إلى المستشفيات المختصة.

وكان القطار رقم٨٣٢ المتوجه من أسوان إلى القاهرة ثم الإسكندرية ، قد اندلعت النيران في إحدى عرباته الساعة الثانية من صباح أمس، عقب مغادرته مدينة العياط عند قرية ميت القائد. وقد أكد الناجون أنهم شاهدوا دخانا كثيفا ينبعث من العربة الأخيرة للقطار، ثم اندلعت النيران بها وامتدت بسرعة إلى باقي العربات الأخيرة، والتي كانت مكدسة بالركاب...

إحدى الصحف بتصرف

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٦-

يومان بلا نوم مر بهما عبد الرحمن إلى أن تأكد لديه أن زوجته وطفله قد احترقا ،،، أكلتهما النار كما تأكل عود الثقاب ،،، الساعة الثامنة صباحاً،،، يقف عبد الرحمن مراقباً لأخبار حادثة القطار على تلفزيون أحد المقاهي وقد عقد يديه خلفه ،،، الدوار مازل ينتابه ولكنه يشتد ،،، شعور بتنميل في شفتيه والقوة التي تحمله فوق الأرض تخور،،، يرتكن قبل أن تظلم الدنيا على الرصيف القريب وينعس لدقائق قبل أن يكافح وعيه ويجهض محاولات لاوعيه نحو النوم ،،،، دقائق أخرى في حربه الضروس وينتصب قائماً ويكمل رحلته نحو عمله ،،، يدلف من بوابة الشركة بلا إلقاء السلام المعتاد ،،، تجره قدمه جراً نحو حجرة رئيس العمال ،،،، الحاج (حيدق)،،، هو أحد أوائل المباركين لتلك الزيجة بين أخت (عيد) الصعيدي و(عبد الرحمن) ،،، وهو لعبد الرحمن أخٌ وأبٌ ،،، يدفع الباب الموارب بعنف ويدخل بثيابه الرثة التي لم يغيرها منذ أيام والإرهاق والتعب باد عليه ،،،، ينظر له الحاج حيدق باستغراب و...

- مالك يابني ؟ خير ؟،،، فيه ايه ؟،،، وكنت فين امبارح ؟

- كنت في الحريق يا حاج ،،، الحريق (يؤكد بضحكة هستيرية عصبية)

- حريق ايه !! ،،، اقعد يا عبد الرحمن طيب ،،، اقعد

بسرعة يغادر عبد الرحمن حجرة الحاج حيدق وينطلق بسرعة وعصبية،

وقدماه فوق بعضهما البعض ،،، يصل لمنزله،،، حجرته،،، سريره ،،، يغط في نوم عميق ولكنه تلك المرة بلا شخيره المعتاد وبلا أحلام ،،،، نوم ميت.

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٧-

لا أحد يعرف أين الباب ،،، هكذا يرى أدونيس ، ولكن الأدهى أن لا أحد يسأل أين الباب؟ هذا ما يراه أدونيس أيضاً ،، ، باب خشبي قديم تساقط طلاؤه يفتحه ليجد خلفه جدارا ،، جدارا خلف الباب.

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٨-

العاشرة مساء ،،،،،،،،،

عفريت ،،، عفريتة ،،، العفريتة ،،، أدهم ،،، نادي المهندسين والنبي يا أسطي ،،، قهقهة تضج مضجعه ،،، يصحو عبد الرحمن من نومه مفزوعاً، وألم شامل يحتويه وكأنه يقظان بعد معترك أبدي ،،، يتأمل بعين شبه مغمضة ملابسه الرثة، يتحسس جيب بنطاله باحثاً عن الموبايل فلا يجده،،، يعتبره من جملة المفقودين ، بصعوبة يحمل جسده المنهك متمتماً (لا إله ألا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) ،،، ينظر لساعة الحائط ليجدها العاشرة مساء ،،، كم لبث ؟ ، لا يجهد عقله المهترئ في البحث عن إجابة ،،، فقط ينزع عنه ملابسه المتسخة التي يخالها التصقت

بجلده ،،،، يلقي نفسه تحت المياه شديدة البرودة فيشهق كمن يسلم روحه، تتنافس المياه الباردة في انتهاك جسده العاري،،، ينهي اغتساله ويكمله بالوضوء ويرتدي ملابس نظيفة متجهاً صوب سجادة الصلاة ،،، الصلاة خير ،،، هكذا كان يردد مقولة شيخ المسجد المجاور لمسكنه ،،، الصلاة خير من الدنيا وما فيها،،، يجمع صلوات اليوم بأكمله في خشوع يبدو مصطنعاً رغم طبيعيته،،، يلقي السجادة بإهمال فوق التليفزيون ليغطي شاشته ويتجه نحو الباب ويخرج ،،،،

تحدثه نفسه بالرجوع إلى السجائر التي كان قد أقلع عنها منذ قرابة الشهرين الآن ،،، لا يتردد كثيراً

- علبة بوكس يا عصام

-مالك يا عبده ؟ ،،، مفرهد ليه كده ؟

- لا ولا حاجة شوية برد وتعب ،،، ربك كريم

كالتائه يشعل أول سيجارة، ويسحب الدخان في عصبية وعنف ويسير،،، ويسير ،،، لا يعلم له وجهة ،،، فقط يسير و يدخن، كل امرأة بيضاء تذكره بزوجته ، كل طفل يراه أو يسمع صراخه يذكره بطفله ،،، كل الأشياء والأحداث تتزامن وتتشابه لتتواطأ عليه ،، تجتمع على وعيه،،، فقط يسير ويسير حتى تقوده قدماه لشارع ٤٥ ،،، من العوايد لشارع ٤٥ ليست بالمسافة القصيرة ولكنه فقد الإحساس بالوقت وبقدميه ،،، فقد الإحساس بكل شيء ،،، تواطؤ ،،، فقط تواطؤ ،،، لم يكن يدرك أن التزامن كما يدعوه علماء نفس الأعماق قد توافرت شروطه لديه بحالة نفسية داخلية سببها شعوره بالفقد وأحداث خارجية قد لا يعير ها اهتماما،

وهو في حالته النفسية العادية ، تلك الأحداث المرئية والمسموعة تأخذ منحى المؤامرة وكأن كل صوت يسمعه وكل موجود يراه هو فقط ليثير الذكرى القاتمة الحزينة بداخله ،، تزامنات مطلقة ،،، يدعونها إشارات،،، علامات،،، ولكنها في حقيقة الأمر ليست سوى توافق زمني بين حالة نفسية داخلية وأحداث الواقع الخارجي و التفاعل بينهما.

يعبر الشارع الضخم إلى الجانب الآخر ليجلس على المقهى ،،، عيناه التائهتان تتزكران صوب المقهى ،،، لا ينظر للعربات المارقة من حوله ، لا يصحو من غيبوبته إلا وصوت كبح فرامل إحدى السيارات التي توشك على دهسه ،،، تضرب السيارة التي توقفت فجأة قدمه اليسرى لتلقي به على بعد أمتار منها ،،، الضربة لم تكن شديدة ولكنها كانت كفيلة لإفقاده وعيه الذي بدا وكأنه يلتمس السبيل إلى الهروب ،،، يتجمع حوله الناس ويتوقف الطريق لدقيقة يفيق خلالها عبدالرحمن.

يسأل أحدهم : أنت كويس ؟،،، فيك حاجة؟

- (صمت)

- طب تعالَ معايا نروح للدكتور هنا ،، قريب ،، تعالَ ،،،،، ينهض عبد الرحمن ويتبع رفيق المصادفة في صمت وذهول.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٩-

الثانية عشرة مساء

الضجر يتسرب ،،، الصمت يخيم ،،، أجلس في عيادتي التي لم يمر عليها سوى أيام قلائل منذ افتتاحها ،،، ما زال المرضى يجهلونها ، اليوم

مثلاً لم يرتد العيادة مريض واحد ،،، فقط أنا وصديقي ،،، نثرثر ونثرثر إلى أن ينتهي الكلام ويشاركنا الملل جلستنا ،،، أقرر مغادرة العيادة والجلوس مع صديقي على المقهى ،،، و ،،، و ثمة من يطرق باب العيادة المفتوح،،، ربما هو مريض اليوم الوحيد ،،،، أخرج لاستقباله فأجده أحد الجيران،،،، كهربائي سيارات وخلفه شاب في أوائل الثلاثينات يبدو عليه التعب وقد أتسخت ملابسه ،،، ملامحه الهادئة رغم ذلك تبعث في نفسي حيرة ما،،، أرحب بجاري مصافحاً إياه بحرارة ورفيقه ،،، بسرعة يتحدث الجار : دكتور ،،،، الراجل (مشيرا إلى عبد الرحمن) خبطته عربة وهو يعدي ٤٥ ،،، عايزك تكشف عليه وخد بالك منه عشان يخصني ،،، (يتردد قليلاً)،،، ده ابن خالي.

- من غير وصاية ،،، ده واجبي

طب عن أذنكم عشان سايب المحل لوحده ، يشير لعبد الرحمن ،،، - حستناك ،،، خلص مع الدكتور وعدي عليَّ في المحل ويهز عبد الرحمن رأسه موافقاً ،،،،

- سلامتك يا باشا

يجيب ووجهه عار من أي انفعالات: الله يسلمك

يراقب صديقي الموقف عن كثب ،،، ألمحه بطرف عيني فأشير له بالانتظار في غرفة الاستقبال فيتفهم بذكاء ويخرج.

- تفضل حضرتك ،،، شكلك زي الفل ،،، مفيش حاجة إن شاء الله

يمد عبد الرحمن يده لأقرب كرسي وكأنما يجر جسده إليه جراً ويسرع بالجلوس ،،، يبدو عليه الإرهاق الشديد ،،، عيناه التائهتان ، نظراته

المُعلقة بخيوط نحو الأرض ورعشة خفيفة تعتري رأسه ونصفه العلوي ، يصلني إحساس أو إدراك ما ،، قل فهم كوني طبيباً ، ثمة مشكلة نفسية وليست عضوية تنتاب هذا الرجل ،،، أو ربما هو أثر نفسي مؤقت لصدمة السيارة،،، لا أدري تحديداً ،،، أجلس على الكرسي المواجه له بمحاذاة المكتب.

- اسم حضرتك إيه ؟

- عبد الرحمن

- أهلا بحضرتك ولأول مرة تلتقي عيناي بعينيه ،،، ألمح فيهما شيئاً ما ، شيئا لا يسمى ،،، أسمعت عن تلك الكاميرا التي سجلت ملايين الأحداث؟،،، بعضها أحداث يومية عادية كشارع يعبره المارة والسيارات،، الأشجار ،، و البيوت ،،، أحداث أخرى ليست عادية ، كانهيار بناية شامخة ،،، قصف جوي لمدينة يقطنها مدنيون ،،، يقال إنها سجلت ذات ليلة انتحار الكاتب الياباني (يوكيو مشيما) وهو ينهي حياته منتحرا على طريقة الهاراكيري اليابانية بعدما اقتحم مكتب رئيس الوزراء حينذاك ، لقد أثرت تلك الأحداث حتماً علي بشكل وبطريقة علمية استفزازية - على مورفولوجية - وشكل الكاميرا التي ربما اكتسبت كهولة ووعيا ما جعلها تتعايش مع تلك الأحداث لدرجة ما أتاحت لعين الكاميرا أن تكتسب اختلافاً لافتا عبر رحلتها في تصوير الأحداث،،، شيء كصورة دوريان جراي مثلاً ،،، إن عينيه من هذا النوع ،،، يبدو أنه رأى الكثير،،، عند تلك اللحظة من تفكيري أو ربما قبلها أو بعدها بلحظات يبدأ عبدالرحمن في التمتمة بصوت خفيض بآيات قرآنية ما لا أكاد أميزها ،،، ربما المعوذتين،،، ورأسه تتمايل ببطء للأمام وللخلف ،،،ينتابني

القلق فأطلب الإذن في النوم على سرير الكشف ومواصلة التأكد من سلامته ليطيعني بلامبالاة مستمراً في تمتمته،،، أضغط بيدي على شتى أجزاء جسمه لاكتشاف ألم في مكان ما ،،،

- هي العربية خبطتك فين يا أستاذ (عبد الرحمن) ؟

يمسك بكلتا قدميه بصمت وأنفه اللاهث يصل لأذني ويلفت انتباهي لعلو صوته ،،، أنظر لوجهه الذي اشتد شحوبه ،،، عرق خفيف يتصبب من جبهته رغم برودة الجو ،،، أسارع في التعامل مع حالته خوفاً من نزيف داخلي أثر الصدمة بينما لا أجد أي آثار دماء أو ألم في قدميه أو أي أجزاء أخرى من جسمه ،،،

أتشكك في الأمر فأقترب بسرعة من فيه ولكن لا أشتم أي كحول ،،،، أفحص رأسه وعينيه وأفاجئه باسماً محاولاً استفزازه للتكلم.

- أتشرب يا (عبد الرحمن)؟

يفهم قصدي بسرعة ويجيب بجديته المعهودة : حد الله ،،، كنت أيام زمان وأنا قبل منتجوز

أنظر لعلبة السجائر في جيب قميصه وأداعبه : طب هات سيجارة.

لا يستجيب لطلبي وبآلية مقتضبة يجيب : لسه راجع للسجاير

لسه راجعلها ؟؟! ،،، لا إرادياً أربط بين (حادثة السيارة) و (لسه راجعلها) و(شعوري بأن ثمة ألما نفسيا ينتاب الرجل) و (أشياء أخرى)،،، يقطع تفكيري انتصابه المفاجىء من على سرير الكشف وصوته الذي تغيرت نبرته وعلوه والسخرية التي تعدو بين كلماته.

-أمي كانت تقول لي سيب (ماجد) ومتعرفهوش تاني ،،، ده مسيحي

كافر وصايع ومعاه فلوس وحيوديك في داهية ،،، بس ماجد كان جدع ودماغ جامدة ،،،،

يصمت عبد الرحمن و أنا أكتب له بعض الأشعات الضرورية للاطمئنان عليه، وأذني ما زال يتردد بها (ماجد) و (دماغ) و (أمي)،،، من أنت يا رجل؟ ،،، يجوب التساؤل طرقات عقلي ،،،أنهي بسرعة وأركز بنظري نحو وجهه الذي تعلوه ابتسامة حائرة متسائلة وكأنما الآن فقط هو قد اكتشف الكثير والكثير مما كان غائباً عنه طيلة حياته.

يردف : مفيش حد زي أبوك ،،،، أوعى تطلع زي أبوك

قالها عبد الرحمن بغموض وأخرج علبة سجائره ووضع سجارتين في فمه وأشعلهما معاً، وأهداني إحداهما مبتسماً ،،، أقبلها منه بابتسامة بلهاء ويغادر هو في صمت تاركاً إياي مذهولاً وأكاد أنفجر ضاحكاً،،،، يمر من أمام صديقي المنتظر في حجرة الاستقبال ويلقيه سلاماً حاراً و يغادر.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٠-

أطفئ نور حجرة الكشف وأخرج لصديقي مشيراً بالسيجارة ناحية باب العيادة

- الكشف في مقابل سيجارة ،،، قلت لك نقلبها بلاي ستاشن مش مصدقني

يضحك صديقي وننسى عبد الرحمن ويأخذنا الطريق إلى المقهى،،، العيادة ثم المقهى ثم المنزل مع البحث عن مستشفى مناسب لزيادة

الدخل،،، أصبحت الحياة شديدة الروتينية، وهذا ما يزيدني توتراً ،،، أكره الثبات عموماً، وهذا عموماً مما يثير حقيقةً تقديرا حقيقيا للطبيب الشاب في بلدي ،،، هاأو ،،،صديقي الذي انهمك مع شيشته ويبدو أنه يرسل رسالة ما إلى حبيبته التي تملأ عليه حياته تلك الأيام و يخططان معاً للزواج،،، لا أنكر أني أحسده على هذا ،،، فقد فقدت خليلتي مع مشارف انتهاء الجيش وصرت خاليًا ،،، فقدانها لم يؤلمني كثيراً ربما لارتباطها بفترة صعبة في حياتي وبنهاية تلك الفترة انتهت هي الأخرى،،، وأنا أفتقدها أحيانا بشدة ،،، إحداهن ،،، إحداهن تتسلل هذه الأيام إلى أيامي ،،، تخرج هذه لتدخل تلك ،،، هذه هي النساء في حياتي ،،، مخدر موضعي بديل عن المخدرات الحقيقية التي أدمنتها- ولو إدمانا نفسيا - بفضل الإحباط والجيش والضجر والضعف والاكتئاب الذي كثيراً ما كان يعتريني،،، حاليًا أقلعت عن كل الخمور والمهدئات والأقراص وإن كنت أعلم أنه إقلاع مؤقت ،،، تتحول الأفكارلكلمات.

- أنا زهقان أوي ،،، متيجي ناخد إجازة من كل حاجة.

يسألني بابتسامة جانبية خبيثة - غيبوبة ؟

أضحك وأجيبه - آه بصراحة ،،، عايز أغيب شوية ،،، أهرب من الواقع.

- طب إيه ؟

- نروح مارينا ،،، عايدة ،،، ودماغ جنونية ولو نسوان يبقى عربدة أزلية.

بخنقة - بلاش نسوان ولا بنات ولا أي جنس تالت

- أي حاجة ،،، مش فارق

ينجذب صديقي للفكرة ،، يشد نفسًا عميقًا ويخرجه كتنين

- متجيب لي شوية يابو شيري

يعطيني ويسألني

-إمتي؟

- أنا مستعجل ،، نظبط بكرة ؟

- نظبط التظابيط ،،،، نظبط

||||||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-١١-

لم أعان كثيراً للسقوط في بئر اللاوعي على خلاف الأرق الذي أصابني الأيام الفائتة ،،، مجرد وضعية رأسي على الوسادة الباردة والغطاء يدثرني،،، أغط في نوم عميق.

الرابعة صباحاً

جزر متباعدة صغيرة ،،،، أحتل إحداها مرتدياً زيا غريبا ،،،، يمتد بصري نحو إحدى الجزر ،،، فأراها ،، ينتفض قلبي بشدة في موضعه فأستغرب الوجع ،،، أشير لها بكلتا ذراعي فتشير هي بلا مبالاة ،،،، ينمو قضيب حديدي بين جزيرتها وجزيرتي وصوت القطار يعوي ويحتل المشهد بأكمله لأنسى أو أتناسى وجودها ،،، القطار مازال يعوي محذراً من عبور القضيب الحديدي وهو مستلقى على ظهره فوق إحدى عربات

القطار ،،، مسطح ،،،، ألمحه ،،، أين رأيتك من قبل يا أنت ؟ ،،، أين ،
كل شيء يسرع ويتضخم ويلتصق ،،، كل شيء ،،،يضايقني هذا الشعور
فأصحو مفزوعاً لأدرك أنه عبد الرحمن ،،، هذا المهووس قد أتاني في
الحُلم ،،، لماذا ؟،،، لا أجهد نفسي كثيرا في البحث عن أجوبة ،،، و أغط
مرة أخرى ،،، خخخخ

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٢-

العاشرة صباح اليوم التالي

- آلو

- آلو ،، صحيتك ؟

كاذباً - لا ،، لا ،،، أنا كنت صاحي أساساً

- عامل أيه ؟ ،،، لماذا لا تتصل؟

- زهقان والله ،، بس كويس إنك اتكلمت ،،، بكرة حروح عايدة المنتزة تقريبا ،،، إيه نظامك ؟

- مش عارفة ،،، أشوفك النهاردة ونتكلم ؟

- فل الكلام

أحدد ميعاد ونثرثر قليلاً و أنا ما زلت فوق سريري الداقيء، أعبث بخصلات شعري الذي قد استطال لدرجة لم أعتدها منذ سنوات.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٣-

السادسة مساء ،،، ذات اليوم

الممرضة تجلس بغرفة الاستقبال وبين يديها أحد الكتب التي تركتها فوق مكتبي ،،،، أبتسم لها

- أنا لم أقرأه

تبتسم السمراء وتهز رأسها في صمت موافقة إياي ،،، يبدو أن دخولي فاجأها ،،، أتحدث معها عن فكرة الإجازة وكيف أني منذ انتهاء الجيش ولم أسترح ،،،، تتفهم الأمر خاصة بعد توضيحي لها أنها ستستفيد من راحتي لتأخذ راحة هي الأخرى لمدة أسبوع وراتبها محفوظ ،،، ألمح بين عينيها ضيقا ما ،،، يبدو أنها اعتادت على رؤيتي يومياً ،،، لا أريد أن تنمو بيننا أي مشاعر من ناحيتها تجاهي ،، كرهت تلك اللعبة السخيفة.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٤-

الثامنة مساء ،، ذات الليلة

تحكي عن مغامراتها الشيقة بين الأقصر والقاهرة وأنا أستمع لها باهتمام إذ بدأ تأثير الأقراص التي تناولتها منذ ساعات قليلة الزحف على تلافيف دماغي ،،، تتلاعب تتراقص ،،، ذات اليمين واليسار ،، فوقاً وتحتاً ،،، فوقاً ،،، فوقاً ،،، الكلونازيبام والترامادول هو خليط سحري ،،، يدخلني في واقع افتراضي من الأحلام التي أصنعها بيدي ،،، سوبر مان ،،، كل شيء ممكن ومتاح.

- أنا عامل دماغ عبيطة

أغيب عنها شاعراً أن شفتيها تتكلمان كلاماً لا أسمعه كما في مشهد سينمائي، يتداخل الحديث بيننا،،، نتبادل المبادرات ،،، هي الأخرى سكرانة ،،، دماغ من نوع بضع زجاجات بيرة (أي دي بطيخ) ،،،، تبقى أن أصف المكان ، (سبيد فاير) بار ودي جي في المنشية ،،، شبه مظلم،،،، أضواء خافتة متراقصة ،،، علو صوت الموسيقا يجعل كلينا نُعلي من أصواتنا لكي يسمع كل منا الآخر ،،،، نسرح الآن في سحر موسيقى بودا بارية الطابع بينما أخرج من علبة سجائري سيجارة ملغوصة لأشعلها في ظلام البار ،،،، و أتسامى ،،،،ها ،،، هي بجانبي تراقبني بالتأكيد وهي منسجمة بتعبيرات جسدية راقصة خفيفة مع الموسيقا الملهمة ،،، أخرج قلماً ،،، أجعله يتراقص ويدور دورات كاملة حول أصابع يدي اليسرى،،، أبدأ حديثا معها لأقنعها بالرسم على كفها مقابل الرسم على كفي ،،، توافق،،،لا أعلم ماذا سأرسم !! ،،، أفكر لوهلة ثم أطبع على كفها حرفا هو S

كبير يتلوى كأفعوان ،،، انتهى من الرسم و أعطيها القلم وتبدأ برسم وجه غير جميل فأقاطعها.

- متيجي نمشي من المكان ده ،،، عايز اتكلم معاكي والدماغ حلوة ،،، والصوت هنا عال

- يلا ،، اشطة ،،، فين ؟

تلملم أشياءها و ألملم أشيائي وأطلب الحساب ،،، أشعر بنشوة مفاجئة و أنظر لذراعها الخمري المرمري وتغوص أناملي في أنامل يدها

و أقترب منها بشدة ،، تُذهل الثملة من ردة فعلي مثبتة نظراتها على عيني وأفعل أنا نفس الشيء ،،، أبتسم بخبث تلقائي ،،، أرى عينيها تبتسم لتنتقل البسمة إلى شفتيها ،،، أقترب أكثر ،،، تمنعني بيد واهنة ولا أجد سوى سبيل شفتيها أمامي ،،، تلك اللحظات الحالمة ،،، أنتبه فجأة أننا ما زلنا في البار ،،، لمَ تراجعت ؟ ، لا أدري تحديدا ، أدفع الحساب ونشبك يدينا في بعضها كطفلين خارجين من باب البار تلسعنا نسمات الشتاء الباردة المفاجئة ،،، أستمتع بها وأنظر و أضحك لها لأجدها تضحك هي الأخرى بلا مبرر ،،، أنتبه للطريق لأبحث عن تاكسي ،،،، تصطدم عيناي به وتتجاهله ،،، ثم ترجع له آليا ،،، إنه هو ،،، بنفس زي البارحة ،،، عبد الرحمن ؟،،، يقف على بعد خطوات مني غير منتبه إلي شاردا سرحانا ويداه في جيوبه ،،، أجده قريباً للغاية ،،،، أترك يديها و أستأذنها .

- ثواني بس

أضع يدي فوق كتفه القريب ،،، أستشعر فزعته برعشة خفيفة تنتابه ليدير رأسه ناحيتي متفحصاً أياي ،،، يتذكرني وتعلو السعادة وجهه فجأة فأصافحه في حرارة.

- أخبار حضرتك أيه ؟
- تمام ،،، تمام أوي
- بعد إذنك عشان معايا ناس
- اتفضل

أرجع لها لأجد علامات التساؤل تعلو وجهها فأجيبها من قبل سؤالها

- ده واحد ملسوع كان عندي امبارح في العيادة

- ملسوع ازاي ؟

- أقولك بس نركب ونقعد على كافيه الأول

- ماشي

أسرع بالإشارة لتاكسي فأجده ملاكي ،،، هذا عيبه ،،، أشير لآخر فيقف ونستقله راجعين إلى ميامي ،،، تلقي الثملة برأسها فوق كتفي فأنظر بحرص نحو المرآة الأمامية للسائق مراقباً رد فعله وأنا ابتسم بداخلي، تلتقي عيناه بعيني لوهلة ثم يسحب بصره ويزوغ في الطريق متجاهلاً الأمر برمته ،،، دقائق ونصل ميامي فأطلب من السائق التوقف عند إحدى الكافيتريات التي أعرف العاملين بها ،،، أين سأذهب بذلك الرأس الحالم وفتاتي الثملة ؟

أنقده.. أجره وأوقظها برقة من غفوتها

- حبيبي ،، سوو ،،، يلا وصلنا

- ها ،،، (تصحو كالتائهة)

أضم يديها إلى يدي فتقترب مني كأنها تحتمي بي من البرد وأتدثر أنا الآخر بها ،،، مقعدان في أول الكافيه التي نصعد لها بسلالم قليلة،،، طرازها الفرعوني مفتعل ،،، هذا ما لاحظته فيما بعد ،،، ولكنها في حُلمي هذا كانت شديدة السحر ،،، هذا الافتعال الذي صنع الفرق في الرأيين ربما يكمن في عدم إتقان العمل على تلك الديكورات الفرعونية ، التنفيذ الفرعوني فاشل،،، ولكن بتأملي في بعض النقوش الدقيقة في بعض

الرسوم وجدت فيها جاذبية ما ساحرة ، ذلك ما التقطته عيناي أثناء هاتيك الدماغ الفائقة الخيالية التي رأت فيما وراء الصورة ،،، الرمز ربما،،، الدلالة ،،، المعنى.

لا أدري تحديداً

أتذكر فجأة فأبادرها : هو أنا قابلت عبد الرحمن وسلمت عليه ولا ده كان حلم وهلوسة ولا إيه ؟

– عبد الرحمن مين ؟

– اللي سلمت عليه واحنا طالعين من سبيد فاير ،،، حصل الحدث ده ولا لأ؟

– آه ،،، الملسوع ؟ (تضحك بمجون)

– حصل يعني ،،، مين الراجل ده ؟ ،،، واشمعني النهاردة و اشمعني أنا ؟ ،،، ما علينا ،،،الحياة ملغزة بما فيه الكفاية ،،، مش طالبة مزيد من الطلاسم

– احك لي مين ده ؟

– أقولك يا سوو ،،،، (و أحكي و أحكي ،،،)

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٥-

لم يعد غير الجنون

إنني ألمحهُ الآنَ على شبّاك بيتي

ساهرًا بين الحجارة الساهرة

مثل طفلٍ علَّمته الساحرة

أنَّ في البحر امرأة

حمَلتْ تاريخه في خاتمٍ

وستأتي

حينما تخمد نارُ المدفأه

ويذوب الليل من أحزانِه

في رماد المدفأة...

... ورأيت التاريخ في رايةٍ سوداء يمشي كمنهزم

لم أُؤرّخْ ،عائشٌ في الحنين ،،، في النار،،،، في الثورة،،،، في سحر سُمِّها الخلاَّق

وطني هذه الشرارة، هذا البرق في ظلمة الزمان الباقي...

(أدونيس)

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٦-

مثلما خلق العالم في ستة أيام ، فربما تقع الواقعة وتنهار حياة أحدهم في ستة ثوان

(عبد الرحمن) ابن فتاة الليل السكندرية العاشقة والتي زهدت الرجال بعد هجر زوجها الوحيد ،،، حبها الوحيد ،،، لا لذة ولا رغبة ولا خفقان من

بعدك ،،، (عبد الرحمن) الذي من ساعات فقد الغاية ، المحرك الأساسي وربما الوحيد للكائن البشري الباحث عن المعنى والغاية كما كان يكرر (مارتن هيدجر) ،،، تستقر الكرة بين قدميه بعد تسديدة من فتى يرتدي فانلة (فرنسا) الزرقاء فيرد عبد الرحمن له الكرة ويتأمله ووجع الفقدان يعتصره اعتصاراً ،،، لماذا ؟؟ ،،، لماذا ؟؟،،،أين الجريمة لذاك العقاب القاسي ،،، يخرج من جوف الشارع الجانبي للشارع الشريان (٤٥) ،،،، هو يمتد من خارج الإسكندرية ليلقي بهم داخلها منتهياً بالبحر ، البعض يقول إن سبب تسميته بـ ٤٥ أن عرضه ٤٥ متراً ، آخرون يدعون أسباباً أخرى ولكن الواقع أن تاريخا ما غامضا يحيط بذاك الطريق الذي شهد ميلاد إسكندرية جديدة،،، نعم جديدة ،،،، بجانب الإسكندرية بحري والمنشية القديمة ،،،،، وربما أنماط بشرية جديدة وسلوكيات وأفعال ومهام ووظائف جديدة وغريبة ،،، الشاهد هنا (عبد الرحمن) والذي يجر قدمه جراً عبر (٤٥) إلى أن يصل لنهايته المطلة على البحر ، ماجد،،، صديقه المسيحي،،، كم قضى معه وفي سيارته في أحيان كثيراً ليالي لا تنسى وإن نسيت فلها في لاوعيه وأحلامه المكبوتة ما لها ، أمه التي حاربت من أجل تربيته على الصلاة والتدين وكيف اعترضت على صداقته من هذا الماجد المسيحي الكافر كما كانت تلقبه دوماً ، كلما جاء ذكر ماجد على لسان أمه كان غالبا ما يتفرع الحديث إلى أبيه (أدهم إسماعيل) الذي لا يعلم عنه الكثير إلا النذر اليسير مما حكت أمه.

- أوعى تطلع زي أبوك

قبل وفاتها بأيام قليلة وبعد قطع عبد الرحمن لصلته مع ماجد ولياليه الخوالي إرضاء لأمه ولنفسه أيضاً إرضاء لشعوره بالقوة إزاء تحويل

مجرى حياته من (الهلس) والصياعة إلى الاستقرار والزواج ،،، كهذا كان يفكر ومن الطبيعي جدا أن يفكر بتلك الطريقة ،،، يدلف (عبد الرحمن) إلى منزله في العوايد ليتسمع بكاء مكتوما يأتي من غرفة والدته؛ ليدخل عليها ويجدها في حضرة صلاتها والمصحف مفتوح وموضوع على سجادة الصلاة وكفاها تخفيان البكاء عن ولدها ولكن ما أن التقت عيناهما إلا وقد أجهشت بالبكاء بكاء حاراً وعلى صوت نحيبها .

- مالك يا أمي ،،،، مالك بي ؟ (يحتضنها ،،،)

- أبوك كان أحسن واحد في الدنيا (صوتها الخافت المكتوم يتخلله نحيب ما)

- الله يرحمه ،،، هوني عليك وأدعيله ،،،

تقاطعه بسرعة قائلة : خد مفتاح الدولاب معاك

يعلم أن الدولاب الصغير به كل ماتبقى من والده ،،، صوره ،،،، بعض قصاصات بها مذكراته وكتاباته ،،،،، كتب اصفرت من القدم بعضها لجده،،، (إسماعيل أدهم) ،،، لم يكن (عبد الرحمن) يعلم أن جده (إسماعيل) مات منتحراً ،،، ولد بالإسكندرية وأحرز الدكتوراة في العلوم من موسكو ١٩٣١ وعين مدرسا للرياضيات بجامعة سان بطرسبرج وعاد إلى الإسكندرية ليتزوج لمدة ويخلف طفلاً عمره سبعة أعوام وزوجته ويأخذ قرار التخلص من حياته التي لم تحمل نفسه لها أي لذة أو رغبة باقية ،،،، لا هدف ،،، لا غاية

،،،،، الدولاب به أيضا بعض القمصان الأنيقة القديمة والتي تحمل رائحة عرقه التي تميزه والدته بواسطته بشدة،،،، وتبكيه بشدة،،،، يأخذ

عبد الرحمن المفتاح من يدها المرتعشة ،،، ويقبلها فتجتذبه في حضنها الدافىء العميق.

قشعريرة باردة تتلاعب كهالة حول وجهه، وهو يواصل السير على طريق البحر ،،، التعب الذي انتابه منذ قليل ذهب فجأة ،،،، عقله المشتعل بذكرياته الماضية أمامه تجعله يغفل كل شيء يكاد لا يرى ولا يسمع إلا ذكرياته ،،، لا يشعر بالمشي إلا في ذكرياته ،،، أصبح كل شيء موجودا ما هو إلا انعكاس لماضيه القصير الممتلىء بالشجون الكثر والفرح القليل ،،،، زوجته ؟ ،،، كم عشقها ! ،،، كم هونت عليه موت والدته ،،، كم حكى لها عن تاريخ أسرته سليلة الترف ،،، أذناه التي ظلت ليلة دخلته شديدة الحمرة خجلاً ،،،، قبلاتها التي أغرقته في بحور الفرح وأخرجته من سُدم اليأس والفقر والعناء ،،،،

يتذكر سجائره فيشعل إحداها ويتأمل من حوله ،،،، أين أنا ؟ يتساءل كيف امتطت قدماه الطريق ليصل هنا ،،،،، (سان ستيفانو)،،، تتأمل مقلتها الفندق الضخم ويتساءل: هل تحترق أسرهم أيضاً؟ يواصل امتطاء الطريق بلا تعب والعيون زائغة ،،، دقائق تمر عليه سريعاً قبل أن يصل لجليم،،، سابا باشا ،،،يلقي نظرة أخيرة عن يمينه وكأنه يلقى وداعاً ما أخيرا للبحر،،، يعبر طريق البحر ليدلف إلى شارع جانبي واسع على جانبيه تراصت عمارات راقية تنم عن ثراء ساكنيها ،،، يصل لشارع الترام ويبحث عبد الرحمن فور وصوله إلى ذلك الطريق الموازي للبحر عن شيء ما ،،، منزل،،، يجد ضالته ،،، فيلا أنيقة مهجورة ربما ،،، أوراق الشجر أصفرت من العطش وتدلت على سور الفيلا وجنزير حديدي سميك يطوق باب الفيلا الحديد ذا الرونق الأوروبي ،،،، ينسحب عبد الرحمن للوراء بطريقة

مسرحية ليجلس على أحد مقاعد محطة الترام المواجهة للفيلا ،،، تهدأ عيناه الزائغتان لتستقرا عند الفيلا وكأنما قد عاش بداخلها من قبل وهو ما لم يحدث ،،، أو كأنه يخطط لسرقتها ،،، هي فيلا والده أدهم ،،،، (أدهم إسماعيل أدهم) ،،،،يسرح عبد الرحمن بوجه هادىء ناعس العينين ،،، لم يشعر عبد الرحمن بمشاعر الأبوة من قبل فهو لم يعِ والده ،،، لا يتذكره فقد كان في عامه الأول آخر مرة رآه فيها ، سمع عنه في طفولته وشبابه من والدته والتي كان يحلو لها الحديث عنه أحيانا ثم تقطع حديثها فجأة بعصبية كلما شعرت بعبد الرحمن ينصت لها باهتمام واستمتاع ،،، اعتاد عبد الرحمن على هذا وصار له متعة ،،، وكيف أن والده ترك حياته الرغدة ووظيفته المحترمة كمهندس في فترة كان تخصصه في هندسة وعلوم الحاسبات - الذي حصل عليه من انجلترا- شديد الندرة آنذاك ،حكت له عن فيلا سابا باشا حينما مروا من أمامها تارة وهو في الخامسة عشرة،،، اعتلته الدهشة الشديدة ، وتساءل: أهنا كان يعيش أبي ونحن نعيش في تلك المقبرة ؟

والده أدهم كانت تنتابه نوبات اكتئابية فلا يذهب إلى العمل ويظل في المنزل يقرأ ويقرأ حتى يمل من القراءة فيحتسي الخمر حتى الثمالة ،،، لوثة جنون كانت تعقب اكتئابه غالباً كان يغادر على أثرها منزله وزوجته وعمله ويذهب ،،، يغيب ،،، ويطول غيابه لأسابيع وربما شهور ،،، في إحدى مغامراته اللاهية تزوج من فتاة ليل سكندرية جميلة بعد أن أقنعها بأن تترك حياة البغاء ولا تسلم جسدها إلا لمن تحبه ،،، وبالطبع هو يعلم أنها أحبته ،،،بل ذابت فيه عشقاً ،،،، أم عبد الرحمن ،،، مكث معها ثلاثة أشهر والحيرة تحاصره وذات ليلة هجرها، ترك المنزل الذي قد

اشتراه باسمها،،، ومظروفًا بداخله رسالة فحواها ألا تحاول أن تبحث عنه فهي لن تجده، ودفتر توفير ذا عائد شهري يكفل لها حياة ميسورة وطفلها الرضيع ويتأسف لها واعداً إياها بالزيارة القريبة ،،،، رجع بعدها لزوجته في سابا باشا ولكنها استقبلته ببرود ،،، تجاهل برودتها التي يعلم كيف يشعلها، حاول تنظيم حياته معها مرة أخرى لكن هيهات ،،، برودها وجنونه اجتمعا عليه في ليالي شتاء ١٩٧٥ ليهجر منزله مرة أخرى ويسافر (تركيا) متحسساً آثار جدوده ،،، حكى (أدهم) لصديقه قبل سفره عن وجود صلة قرابة بينه وبين الأستاذ النقاش الأشهر (سيد ميراك) معلم (بهزار) وهو نقاش آخر شهير ،،، يرى سيد ميراك أن العمى ليس بلاء بل هو السعادة الأخيرة التي يمنحها الله للنقاش الذي وهب حياته كلها للجمال؛ لأن النقش هو بحث النقاش عن الرؤية الإلهية للعالم ،،، ويتحقق المنظر الفريد بالتذكر بعد انهيار النقاش تماما ووصوله إلى العمى ،هذا يعني عدم إمكانية فهم الرؤية الإلهية إلا من خلال ذاكرة النقاش الأعمى ،،، يحكي أيضا بإسهاب لصديقه واسع الصدر عن أن النقاش مثلاً ينظر إلى الحصان ثم يرسم بسرعة على الورق ما في ذاكرته، وما بينهما حتى لو كان غمضة عين، فما نفذه الرسام على الورق هو ليس الحصان الذي يراه بل ذكرى الحصان الذي رآه قبل قليل ، وهذا إثبات أن الرسم غير ممكن إلا من الذاكرة حتى بالنسبة لأقل النقاشين قيمة ، ونتيجة رؤية النقاش لحياته المهنية الفعالة تحضيراً للعمى السعيد الذي يأتي فيما بعد ،،، الرسم والعمل دون توقف والنظر لأيام طويلة وفي ضوء الشمعدانات هو عمل ممتع يقودهم للعمى ،،، عمل الأستاذ ميراك طوال حياته على الاقتراب المقصود من العمى أحياناً برسم شجرة بأوراقها

على أظفر أو حبة أرز أو حتى شعرة وفي أحيان أخرى يعمل على تأجيل الظلام احتياطاً برسمه حدائق مشمسة ومُفرحة ، وهذا يعني بحثه عن الزمن الأنسب للوصول للنهاية الأسعد ؛ العمى.

ıııııııııııııııııııııııııııııııııııı

-١٨-

يعود بعد شهر وأيام إلى الإسكندرية طويل الذقن غير مهندم الثياب،،، تعلوه غبرة الحيرة ،،، لا تنتابه الرغبة في العودة لبيته الأول ولزوجته الأولى الآن وبمظهره الرث هذا ،،،، تقوده قدماه إلى فندق متواضع في المنشية حيث يلبث ليلته مخموراً ،،،، يصحو على السماء وقد فتحت أبواب المطر ،،، شتاء بارد مطير ،،، يرتجل من المنشية حتى جراج الفيلا بسابا باشا ،،،، مسافة ليست بالقصيرة ولكنه لا يشعر بالمسافة ولا بالوقت والأفكار تنشب أظافرها بعقله وعينيه التي كانت من ساعات قليلة ترمق مسجد (آيا صوفيا) وكأنها مرتها الأخيرة.

يقترب بخطى وئيدة من جراج الفيلا الذي لا ينتمي مكانياً للفيلا ذاتها،،، بسبابته القوية يدفع باب الجراج مرن المفصلات ،،،، يبتسم لاستجابة الباب السريعة رغم مرور شهر من الفُرقة ،،،تختفي ابتسامته سريعاً عندما يلمح سيارة زوجته فقط ترتكن جانباً ومكان سيارته فارغ ،،، ليس هنالك حل سوى المواجهة ، تلك الوسيلة التي تخلى عنها منذ حقبة طويلة اعتماداً على ثروته التي ورثها من عائلته الموقرة ،،،، ولكنه الآن خاوي العروش وحتى العربة ليست موجودة ،،،، يعبس وجهه ويقطب جبينه مع ذقنه الطويل والبالطو الثقيل وعوده الفارع المهيب ،،، خطى

متسارعة واثقة نحو باب الفيلا قبل أمتار قليلة من باب الفيلا الحديدي تتسرب أصوات العصافير المحببة لسمعه ،،،، يلتفت حارس الفيلا للقادم فيهب واقفا مهللاً بصوته الجهوري، وتبدو عليه فرحة حقيقية

ıııııııııııııııııııııııııııııııııı

-١٩-

يتناسى أدهم الفروق الطبقية التي نبذها من زمن ونبذ معها الكثير والكثير،،، يتعانق وحارس الفيلا العجوز الذي يعتبره أباه الحقيقي،هو يتذكر أباه بالطبع، كان معهم حتى عامه السابع حينما توفي منتحراً وانقلب حال المنزل لحالة من الكآبة، والحزن طالت أعوامه وأثرت عليه بالطبع فقد عاصرت تلك الفترة مرحلة نضوجه المبكر ،،، لا يلبثان أن يصحو كلاهما من فرحة اللقيا على صوت كلاكس السيارة خلفهما والسائق الجديد، زوجته وطفلاه بزيهما المدرسي يجلسان بالخلف ، ينزل السائق الذي لا يعرف أدهم ويتجه مباشرة لفتح العربة للسيدة وطفليها،،،، هي التي تنظر والدهشة تعلو وجهها لدى مرآها له ،،، تقبض بيدها على طفليها وتسرع نحو باب الفيلا دونما إلقاء أي تحية ، ببرود يلقي أدهم السلام على السائق الجديد ويغمز العجوز بعينه وابتسامة غامضة، جانبية ،،، يصعد سلالم الفيلا ببرود وثقة.

ıııııııııııııııııııııııııııııııııı

-٢٠-

على مقعده على محطة الترام يغمض عبد الرحمن عينيه ناعساً ،،، يتزحزح ببطء من المقعد الرخامي الأملس لينكفىء على الأرض ،،، يصحو مذهولا وثوان وينعس مرة أخرى على أرض المحطة مستندا على المقعد الرخامي، لا يوقظه صوت الترام المزعج ولا الركاب الذين يلقون نظراتهم عليه ويكملون طريقهم بلا مبالاة ،،، نام كالمقتول ساعتين أو يزيد ثم استيقظ ووجهه عار من أي انفعالات ،،، يرتكن الترام ببطء على المحطة ،،، يفزع عبد الرحمن لدى مرآه للترام هكذا بلا مبرر ،،، ينظر له الناس في ريبة ،،، الإجهاد الشديد وملابسه التي يعتليها التراب والاسوداد تحت عينيه قد أضفوا عليه بلا شك مظهرا جنونيا يجعل السائرين يتحاشون حتى التقاء البصر ،،،،ينهض عبد الرحمن من كبوته ويهرول خارج المحطة متمتماً بطلاسم غير مفهومة ،،، ويواصل بلا كلل،،، امتطاء الطريق وكأنما نذر عليه أن يطوي سكندريته الغامضة قبل ،،،، قبل ماذا ؟

|||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٢١-

لأن طريق البحر لا يؤدي لغير البحر وأن اختلف بحر ميامي عن بحر ستانلي عن بحر المنشية فكلها بحور ،،، بحور في قلب الحدث ،،،، عبد الرحمن وقد تداعت عليه الكارثة المتزامنة مع ذكرياته لتجعله في وضعية

لا أستطيع وصفها ولا تفسيرها إلا بمترادفتين لم تستطع اللغة تحمل ثقليهما من فرط المعنى ،،،، النبوءة ،،،، أو الجنون ،،، من رأى ،،، من فهم ،،، فإما أن يحمل نبوءته أو يصيبه مس من الجنون ،،، وقد اختار الجنون طريقه إلى عبدالرحمن الذي لم يستطع حمل تجربته القاسية على كتفه الواهن وكأنما هي سلالة تحمل الحيرة في جينومها الموروث من الجد للأب للابن ،،،،سلالة الحائرين ،،،،

عبد الرحمن الذي جلس على تلك المقهى القديمة متشابك الأفكار وقد بدأت أفكاره المتلعثمة في الخروج كالألفاظ يتفوه بها متمتما لنفسه وهو ينظر إلى الأرض ،،، آخر نقود يمتلكها يعطيها للقهوجي في صمت ويسير قليلاً ،،، السماء الحمراء تقطر نقطاً خفيفة من المطر ،،، يلمح عبد الرحمن عمود الإنارة ويقف عنده ويفكر لأول مرة بمنطقية منذ أيام ،،،، أريد العودة لمنزلي ،،، المفتاح ،،، لن أستطيع مواصلة المشي رجوعاً مجدداً ،،،، لا نقود ،،، الحل ؟ ،،،،،،، لا يفكر كثيراً إلا ويشعر بيد ممدودة يلمس كتفه الأيسر فينظر متفاجئاً ليجد شخصا مألوف الوجه ،،،

- أخبار حضرتك أيه ؟

- تمام ،،، تمام أوي

- بعد إذنك عشان معايا ناس

- اتفضل

يتذكر النقود فيكاد ينادي على هذا الشخص مألوف الوجه طويل القامة مرة أخرى ولكن يمنعه خجل مفاجىء ،،،، يشعل آخر سيجارة في علبته ويتأمل طبيب البارحة وهو يوقف تاكسي مع فتاته الجميلة ،،،،

الساعة الواحدة ،،، ذات الليلة والسماء قد فتحت بواباتها للمطر.

يصل عبد الرحمن بشعر مبلل أشعث وملبسه المبتل الرث إلى منزله،،، يتحسس جيوبه والخوف يمتلكه أن تكون سلسلة مفاتيحه قد فقدت ،،، يتهلل وجهه ببلاهة جنونية عندما يشعر بملمس المفاتيح المعدني البارد في جيبه ،،، يدلف إلى منزله متجهاً إلى المطبخ ليلتقط علبة السكر ويلتقط ملعقة غير نظيفة ملقاة بإهمال داخل الحوض الذي يشبه البركة، وقد تراصت بداخله أكواب وملاعق وأواني طهي قديمة مسودة القعر لم تغسل بعد ،،، يحف ملعقتين من السكر ليضع العلبة والملعقة جانباً ويمسك بمفتاح ما ،،، ذاك المفتاح الذي أعطته له والدته قبيل وفاتها بفترة قصيرة،،، يدخل المفتاح الذي يقاوم الدوران قليلاً ثم يستجيب ،،، رهبة غامضة تنتاب عبدالرحمن وهو يفتح الدولاب ،،، ما أن تنفتح دفتا الدولاب العتيق حتى تنبعث منه رائحة خشبية أليفة وتقع عين عبد الرحمن أول ما تقع على صندوق كرتوني ،،، يحمله باستعجال ويضعه أرضاً ويجلس بجانبه ينظر له دونما فتحه لثوان ،،، يفتحه ليجد كتبا قديمة صفراء كلها تحمل عناوين بلغة غريبة ،،، لا يعلم عبد الرحمن أنها الروسية وبعضها بالإنجليزية وكتيب وحيد صغير تآكلت أطرافه بفعل الزمن ،،، عنوان الكتاب يحمل فاجعة تخبط دماغ عبد الرحمن للخلف بحائط وهمي وترده بسرعة الضوء لاسم مؤلف الكتاب ،،، إسماعيل أدهم ،،، جده ،،،

ذاك الدوار والغثيان يعاود مهاجمته فيضع الكتيب بداخل الصندوق

ويسجي جسده والأشياء كأنها تدور حول رأسه ،،، ذبذبة صوتية كريهة،،، يغمض عينيه ليختفي الدوار تدريجياً ،،، يتضاءل الصوت ،،،

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٢٣-

الواحدة بعد منتصف الليل ،،، ذات الليلة ،،، ما زلت أنا ورفيقتي جالسين على تلك الكافيتريا فرعونية الطراز.

- فوقي يا بت ،،،

أضربها بخفة على كتفها ،،، نتحدث منذ ما يقرب الساعة وفي أمور رائعة ولكنها ما أن تندمج في الحديث معي وتترك لي زمام الكلام فإنها تغفل ببطء ،،، تغمض عينيها الثملة وتغيب؛ لأوقظها وهي تضحك بهستيرية لذيذة ،،، لا أتذكر أني قد تحدثت من قبل مع أحد في أمور كالنظريات النقدية الأدبية والفكرية الحديثة ونبذها لوجود أي سلطة مرجعية أو مركزية أو نقد ما يسمى بميتافيزيقا الحضور ،،، الوجود المتعالي ،،، الذي يقف راسخاً في المركز والكل يدور حوله ،،، كل من حوله يشعرون يقيناً بأنه مهما ذهب بهم الحال فإنه لامفر وإن يرتبط هذا الحال ولو بخيط رفيع متآكل بذاك المركز ،،، مما جعل الكتابة قديماً وحديثاً تخضع لفهم خاطىء وهو التمركز حول الصوت، ذلك التعبير الصوتي عن الأشياء في هيئة ملفوظات صوتية تمثل الأشياء من حولنا وتعطي الوجود معناه ،،، الكلمة المنطوقة قد سبقت الكلمة المكتوبة؛ لذا فهي كانت الأهم ووجب التمركز حولها كصانعة للوجود والكينونة وتهميش فعل الكتابة ،،، هذا ما

حدث للكتابة عبر التأريخ البشري كما يرى جاك دريدا وكثير من تفكيكيي الحداثة أنه يدعو للتمركز حول الكتابة ،،،، فتح صفحة جديدة معها ،،، مصالحتها ،،، الخضوع لها أكثر.

- الإنسان يا سوو نظم حياته ومجتمعه خلال كام مليون سنة كانت كافية لتطوير فكره ليصل لوضعه الحالي على قمة الأنواع الحية.

- آه ،،، وكافية حتى أنه ينظم شهواته ورغباته وخطاياه الموجعة إياه في صورة شرعية ويسميها الجواز واللي عكسها الزنا المحرم.

- آه ،،، آه ،،، (باهتمام صادق) ،،، أردف ببرود هامس متأملاً وجهها الجميل : وأحنا قلوب مشتاقة ،،، والدنيا سراقة،،، مساء الفل.

- مساء العسل

أنظر مع امتداد بصري إلى تلك الفتاة الجالسة بجوار أحدهم والتي منذ مجيئي وقد أصابها توتر ملحوظ ،،، لا أتخيل هذا بفعل دماغي الحالم ،،، لا ،،، بعد أول تلاق لشعاع بصري مع بصرها قد أصابها توتر ما قد لاحظه الرجل الأربعيني الذي يجلس بجوارها ،،، لا أنخطف معها كثيراً وأبادر:

- الأفيون بجد ييجي بحريمة يا جدع

- إيه؟ ،،، لماذا الأفيون ؟

لا أجد في نفسي الحماس لشرح ما أعنيه فأنظر لها مبتسماً وأصمت مع العلم أنه لم يكن في مجموع هذا الكوكتيل الدماغي الخيالي هذا الأفيون.

تنظر لساعتها فجأة وكأنما تذكرت فجأة :

- الساعة واحدة ونص ،،، تأخرت أوي لازم أروَّح

- أنا رايح عايدة بكرة ؟؟،،، إيه ؟

- بكرة صعب أوي ،،، بص ،،، مش قلت حتكمل الأسبوع هناك ؟

- آه

- نبقى نتكلم ونشوف ،،، اذهبي إذن

أوصلها بالقرب من منزلها وأودعها ،،، و ،،،

-آلو ،،، أنت فين يا باشا ؟

- على القهوة ،،، إيه خلصت ؟

- آه ،،، (مداعباً) ،،، الحقائب جاهزة ؟

- جاهزة يا معلم (،، يضحك،،،)

- طب حروح أجهز حقيبتي أنا كمان وأجيلكم على القهوة ،،، ماشي؟

- فل ،، ماشي

- سلام ،،،

- سلام ،،،،

أبحث عن ولاعة أو ثقاب ولكني لا أجد ، أرى أحدهم مُشعلاً فأذهب إليه وأشعل منه ،،، أثناء إشعالي ألمح بطرف عيني أحدهم يفترش الرصيف،،، أتفحص ،، فأجدها سيدة وابنها نائم بجانبها وحولهما بعض الأكياس التي تحوي طعاماً ما أو أشياء من هذا القبيل يعينهم على سُكناهم قارعة الطريق،، لا أدري لماذا أتذكر (عبد الرحمن) ،، ربما لشيء ما بداخلي يعلم يقيناً أن مصيره سيكون الشارع كشحات ومخبول

تألفه الوجوه لفترة ما ثم يعاود الاختفاء،، أو يخفيه الموت،، لا أحد حينها يستطيع إخبارك يقيناً وأنت لن تسأل فقد اعتدت رؤيتهم و تواريهم ولم يعد ذاك يثير لك بالاً ،،، رنين الهاتف يخطفني من دوامتي.

- معاك كارنيهات عايدة
- يا عم سهلة لا تقلق
- فل ،،، تمام

حلقي شديد الجفاف و لا أشعر برغبة في الأكل ، أنظر للخلف لألقي نظرة على السيدة التي افترشت رصيف البحر ثم أسرع بالانحناء إلى شارعي ،،، ٤٥ ،،، وأدع البحر خلفي ،،، أول مقهى أجده ألقى جسدي المنهك من كثرة التجوال والمناطق على أقرب كرسي ،،، بدأ رأسي الحالم في العودة لطبيعته ،،، الشعور بالتعب و الإجهاد ،،، يسألني عن طلبي ،، أجيبه : شاي

أسرح قليلاً ويعود هو بعض لحظات قليلة ويضع الشاي على منضدة صغيرة بجانبي ويغادر ،،، أفتح زجاجة الماء (المبرشمة) ،، سياحي ،، وأخرج شريطين أفرغ قرصين من أحدهما وقرصا واحدا من الآخر ،،، أقراصي الحالمة ،،، متي سأغادرك وأصبح بشراً سوياً طبيعياً ؟ ، لن يكون هذا قريباً على أي حال ،،، ابتلع الأقراص وأشعل سيجارة أخرى متأملاً طريق البحر غير البعيد ،،، أرتشف الشاي منتظراً هبة السماء وكشفها الذي لايأتي أبداً ،،،و ،،، و يرن المزعج ،، هاتفي

أتدري معني الخبز بالشيكولاتة ؟..... ماذا يترك لديك من شعور عندما تترنم أذنك بخبر حلو تنتظره من شهور في مطعمه الإيرلندي ويسكن فوق طاولتك طبق أبيض به الشيكولاتة وخبز ناعم يناديك ...... لماذا يومها في ذلك البينالي مررت كريماً على لوحات عدة .... بعضها انطباعي.... وسريالي ....ملغزة بغير معنى يثيرني ....إلا لوحة ما لروسي يدعى (فيكتور بريجادا) .... اسمها ..... «بينما السيد مازال نائما ...»... قد ترك أحدهم في منتصف اللوحة لوحة رسم خشبية عملاقة ترتكن باتزان فوق غابة من الأشجار الكثيفة والتي يحيطها عن شمالها سلسلة جبلية تمتد لتبهت عند الأفق ... وعن يسارها قلعة صخرية سامقة فوق قمتها طاحون خشبي .....تبدو تلك القلعة كالمنحوتة في صخور جبل ما يمتد و تبهت سلسلته الجبلية أيضا عند الأفق .... أفق غائم بالسحاب الركام إلا من فتحة تسمح بظهور قرص الشمس ومرور نوره فوق لوحة الرسم الخشبية والتي أثناء نوم السيد الذي ألقاها هاهنا فوق الغاب ..... قد استيقظت تجمعاتها اللونية ...صارت بشراً يجلسون القرفصاء ...متجاورين .....رجل أزرق يجلس بجانب سيدة خضراء وعلى غير مبعدة منهما قد تسجت كومة اللون الأحمر في رجل يراقبهما ويتفرج ومعه الأزرق والأخضر وبقية الألوان على اللون الأبيض، وقد استعد للبدء في رسم لوحته على ورقة بيضاء مائلة فوق مسند خشبي وراءه يعقد الأسود يديه في جلال مشاهداً الأبيض يقف بثقة مستعداً لبدء لوحته الأزلية ... تسمرت طويلاً أمامها إلى أن أنقذني (فاجنر) ... العبقري القاتل ....أتسمع أنين

أغنياته الرنيمة وكأنها رياح تبكي ... ذئاب تعوي في ليلة قتل فيها الزوج المربوط في قدم الدهر زوجته وطفليه خشية إملاق .... رغم ادعائه الصبر الطويل أن يرزق و إياهم .... أثبت السماعة الصغيرة على أذني لمزيد من الغرق مع فاجنر.... أين تلكم المستقبلات التي تسمع فيكتور وترى فاجنر ...والعكس صواب .... لماذا تلمس تداعيات الإبداع تداعيات أخريات تسكن في دواخل الحائرين وأهل التساؤل وهم يمرحون ويطرقون باباً للإبداع ... الخلق ... الهارموني .... البللورية ... كريستالية ..... إنما الخالقون أخوة . فأصلحوا بين أخويكم

كل تلك الأفكار اللامترابطة تتراقص داخلي وأنا على ارتخاء أمام بحر (عايدة) في المنتزة ....و الجوان النووي يشعل ما بقي من كحول واقراص الأمس ... الآن ....مجرد أن أغمض عيني أحلم ...أغرق في طيات حلم لحظي أخاله دهراً لأفتح عيني والبحر يفور ...يدور ....دواره بداخلي ....يبدو لي.

وصلنا نحن الخمسة البارحة مساء ،،،، لم نفعل شيئاً سوى احتراف التركيبات الدماغية، قواعد كيميائية ومسكرات ودخاننا الأزرق،،،، أخذوا يتساقطون من حولي الواحد تلو الآخر حتى لم أجد مفراً من النوم بعدما صرت وحيداً ورأسي المشتعل ،،،، لم يطل نعاسي طويلاً ،،، الثامنة صباحاً القلق يرفع جفني من سباتهما وأنظر للخمسة من حولي وكأنهم نائمون بعد معركة ضروس ، بخفة أتناول زجاجة بيرة وسيجارتين ملغومتين. ماذا نسيت ؟،،،، آه،،،،، التليفون محاولاً تقليد القطة أتقافز بين أجسادهم الملقاة أرضاً ،،،، ألتقط سماعة تليفون أحدهم متذكراً فاجنر الذي يسكن ذاكرة تليفوني منذ أيام قليلة.

أمتار قليلة وألقي التحية على البحر الذي أخاله يبتسم لي بفوران أليف، أجلس ،،، أتجرع من زجاجتي ،،، أشعل جواني ،،،، أسترخي، مجرد أن أغمض عيني وشفتاي مطبقتان على الجوان والدخان ينسدل في نعومة ،،، والبحر يدور،،، يفور،،،، بداخلي،،،، يبدو لي كل شيء قد استيقظ من مواته ،،، كل شيء صار له وعي وحياة،،،، الجوان يحتضن أناملي فلا أكاد أحمله ،،، مقعدي البلاستيكي كحواء انزرعت فوق عش الرمال لتدغدغ قسيمات ظهري اليابسة ،،،، الريح الأملس يقتفي أثراً بيني وبينه كحديث ودود لا يفهمه سوانا ،،،كل نفس يخرج من صدري يحمل معه أكاليل آلام غامت فيها روحي السنوات القليلة الماضية ،،،، لا ينقصني سوى جناحين الآن لأحلق ،،،،وأرقب وأذوب،،، وأذوب.

هل رأيت مرةً طفلاً يقع من فوق كرسي فينفجر باكياً ويغرق الكرسي ضرباً و ركلاً ،،، أشعر به الآن ،،، أواه لو ضربت الأرض لأنبت منها الحُلم، ما تلك النشوة؟؟ ،،، كل شيء يغني معي ،،، أواه روحي فاجنر

منمنمة موسيقية مألوفة تشتبك مع خيالاتي ودوار بحري ،،، بمهل أتبع مصدر الموسيقى لأجد التليفون نصف الغارق تحت الرمال ،،، أنتزعه باسماً له وأنفضه لأرى المتصل ، أدور برأسي الطائر دورة كاملة، نظري صوب الشاليه ،،، فلا يراني،،، أصدر صفيراً عالياً من بين بنصري وسبابتي ولساني الملتوي ،،، أراه يتبع صوت الصفير كالتائه حتى يثبت نظره على يدي المُلوحة له ،،، ما الذي أيقظك ؟؟ ،،،، لا أحتاج لإحياء الآن ،، ولكن لا بأس.

يلقي جسده على كرسي جانبي وابتسامة ذات مغزى تغلف فاهه ،،، أعطيه الجوان غامزاً له ،،، لم نتكلم كلمة واحدة ،،، فقط أنهمك هو مع سيجارته النووية وأنا مع فضائي ،،،، الجملة ،،، العبارة ،،، قد لا تكون للكلمات ضرورة في كثير من الأحيان ،،، تكفي إيماءة ولو خفيفة لإيصال المعنى،،، العبارة هي اشتقاق من التعبير ،،، التعبير ،،، ما يُعبر هو عبارة، هو ما يحمل دلالة مفهومة،،،، ماذا يعتريني ؟ أسحب المحمول وأفتح ملفا كنت قد خصصته لتدويناتي وخواطري و أكتب :

أنا – البحر وعايدة –شارع النبي دانيال والمصادفة والضرورة من ع الرصيف–جاك مونو– الحفريات –زنجانتروب–حفريات المعرفة وفوكو والعبارة.

زخم رهيب من الأفكار أجتاح عقلي وجدار ذاكرتي المهترىء أساساً وقررت كتابته لاحقاً،،،، والآن هو لاحقاً،

بعد استيقاظ رفاقي– الذين قد أقلق نومهم عودة الوعي لاثنين من وحدتهم الخماسية النائمة بشكل ما،،،، جلسنا نتأمل البحر،،، أحد الرفقة يترنم بعذوبة بأغنية ل (منير) ،،،،

لما تهل المغارب قلبي بيصبح قارب

تليلي يا ليلة ،،،،،،،،أصبح فى عنيكي هارب

يا ليلة عودي تاني،،،،،يا ليلة عودي تاني

يهمس الجميع بخفوت يعلو تدريجياً ليندمج وصوته العذب الرقيق وفوران البحر الشفيف قد أضحي جزءاً من اللحن.

أشعله وآخذ منه أنفاسًا قليلة ثم أجعله يدور دورته ،،، يقترح أحدهم نزول البحر فيجد الجميع متكاسلين ،،، الفكرة كأنها كبرت في دماغه،،، يستمر في إلحاحه ،،، أستغل أنشغالهم وأهب واقفاً.

- حروح أجيب التليفون من الشاليه

إيماءات موافقة بعضها يستنكر تركي لهم المفاجىء فأبتسم وأنظر لرمل البحر وأكمل طريقي نحو الشاليه،،،،أفتح حقيبة سوداء صغيرة وأخرج منها نوتة (سيفيدين) طبية وقلمًا أحمر وأكتب بسرعة قبل فرار سرب أفكاري.

ليس من السهل بل إنه من العسير ملاحقة زخم فكرة قد أتت لتأكل منك ومن أيامك ليالي طويلات ،،، اللغة ،،،، العبارة ،،،، المعنى والدلالة

لم تفاجئني تلك الملاحظة حين سمعتها أول مرة ،،، (العرب ظاهرة صوتية)،،، هي فقط أدهشت وأحيت جزءاً ما بداخلي كان يلاحظ ويرقب تلك الظاهرة ،،،، كل شيء كان معداً مسبقاً اعتباطياً ليجعلنا شعوبا كثيرة الكلام حول أشياء مكررة باهتة،،، أنظر حينما يُلقى طفل في أعوامه الأولى ليختلط بالشارع والمدرسة فإن أول معترك ومواجهة له لإثبات الهوية هي تعلم كيف يثرثر ويواجه الآخر المتكلم ،،، يقولون أحياناً أننا شعب كِلم - بكسر الكاف- الأشكالية هنا ليس كوننا أصواتا بلا معنى ،،، أصوات غائبة الدلالة والمعنى يخرجنا من دائرة الأفكار الجديدة،،،، شعوب غير قادرة على الإبداع ،،، الخلق ،،، الإتيان بجديد،،، لا نفكر أن هنالك ما يسمى بأفكار ،،، حتى كلمة فكرة في حدها ليس لها معنى واضح في أذهاننا.

أتذكر الآن كأنما (ميشيل فوكو) ذاك الفرنسي كأنه يتحدث معي في (حفرياته المعرفية) ،،،، من البين أن العبارات لا توجد بنفس المعنى الذي نتحدث به عن وجود اللغة ، وحتى اللغة لا تُعطى في الواقع كاملة وفي كليتها ، ولا يمكن اعتبارها كذلك إلا بكيفية مفتعلة، وبوصف ينطلق مسبقاً من أنها كذلك ويتخذ منها موضوعاً لدراسته ، والأدلة التي هي بمثابة عناصرها المكونة ، أشكال تفرض نفسها على العبارات وتحكمها من الداخل ، وبدون عبارات ليست ثمة لغة، لكن ليست كل عبارة شرطاً لوجود اللغة (فإمكاننا دائماً افتراض أية عبارة مكان أخرى دون أن تتغير اللغة مع ذلك) ، فاللغة لا توجد إلا من حيث هي منظومة لبناء عبارات ممكنة ، إلا أنها ومن جانب آخر ، لا توجد إلا من حيث هي وصف (جامع ومانع إلى حد ما) ،،،لمجموع العبارات الواقعة ، فاللغة والعبارة ليس لهما نفس المستوى في الوجود ولا يستويان فيه ، إذ لا نستطيع القول بأن

ثمة عبارات مثلما نقول ذلك عن اللغة، هل حروف الهجاء التي اكتبها بدون سابق تفكير على ورقة ما كمثال على ما ليس عبارة ، وهل الحروف الرصاصية المستعملة في الطباعة ، والتي لا يمكن إنكار ماديتها من حيث إنها سميكة وصلبة ، هل كل هذه الأدلة المبسوطة أمام ناظرينا والقابلة لأن تلمس باليد ، هي بحق عبارات ؟

إذا نظرنا إلى المسألة عن قرب أكثر ، بدا لنا هذان المثالان (الحروف الرصاصية والحروف المكتوبة على ورقة) غير متطابقين ،، فحفنة الحروف الطباعية التي باستطاعتي أن أمسكها في قبضة يد ، وكذا الحروف المكتوبة فوق ملامس الآلة الكاتبة ، لا تشكل عبارات : بل هي مجرد وسائل نكتب بفضلها عبارات أما عن الحروف التي أخططها بلا تفكير على الورقة كما تتوارد علي ذهني ، فإذا كانت عفويتها لا تبيح لها أن تشكل عبارة ، فما هي إذن ؟ وما الشكل الذي تكونه ؟ وإلا هي قائمة حروف اختيرت بكيفية عشوائية ، ومجموعة أبجدية لا يربطها أي نظام ولا تخضع لأي ترتيب سوى المصادفة ؟، ونفس الشيء ، يمكن قوله عن قائمة الأرقام العشوائية التي يلجأ اليها الأخصائيون أحياناً ، فهي سلسلة من الرموز الأرقام المحصل عليها بواسطة طرق تحذف كل ما من شأنه أن يعمل على تزايد احتمال النتائج المتعاقبة؛ لنوجز المثال : ليست ملامسة الآلة الكاتبة عبارة ، إلا أن مجموعة الحروف التالية

A .Z .E. R .T

الواردة في كتاب لتعليم الضرب على الآلة الكاتبة هي عبارة عن النظام الأبجدي المستعمل في الآلات الكاتبة الفرنسية ، ها نحن أولاء أمام عدد من النتائج السلبية :

فليس البناء اللساني المنتظم شرطاً لازماً لتكوين العبارة (إذ بالإمكان تكوين عبارة بواسطة مجموعة ذات احتمال أدني) ،،، ولا يكفي كذلك الحضور المادي لعناصر لسانية أو انبثاق الأدلة في الزمان والمكان ، كي تظهر عبارة ما أو تعرف النور.

أتردد دقيقة كالأبله أمام ما خطته يداي ،،،،، بسرعة أخرج المحافظة من جيب البنطلون الجينز الخلفي الملقى بجانب ما ،،، أخرج وريقة صغيرة و ،،،و أكتب :

والآن ،،، ما المكانة التي تحتلها الكلمة المكتوبة في الفهم التقليدي للغة كما يرى الفرنسي الآخر (جاك دريدا) ؟

الفهم أو المفهوم التقليدي للغة هنا هو ما يرتبط فكرياً وذهنياً لدى (دريدا) بما نراه نحن الشعوب الغائبة عن ركب التقدم البشري من التطور الذي أحدثته الحضارة الغربية الليبرالية الحديثة من تفوق فكري وعلمي ،،، ولغوي بما تمثله علوم اللسانيات واللغة الحديثة من فهم لا يراه (دريدا) يختلف البتة عن الفهم التقليدي للغة حيث تمثل الكلمة المكتوبة التمثيل الكتابي للكلمة المنطوقة، ولا يمكن أن تقوم الكلمة المكتوبة بأي شيء عدا تمثيل الكلمة المنطوقة في حين أن الكلمة المنطوقة هي الدال ، والدال هو هذه الصورة الصوتية أو الصورة السمعية ،،، إن الصورة الكتابية لكلمة زهرة مثلاً تعد ثانوية بالنسبة لصورتها الحقيقية؛ لأنها بنية مرئية للصورة الصوتية غير المرئية فحسب، إنها شيء أشبه بالطيف ومن الممكن إهمالها، بل لا بد من إهمالها،،،، هذا التصور التقليدي للكلمة المكتوبة في اللغة يكرر (دريدا) بإصرار أنه لا يختلف عن التصور اللساني والبنيوي الذي حاول أن يضم اللغة في نسق علمي ونقدي بوصفه نموذجاً كاملاً لوصف

العلامة. إن العلامة تنتج دائما من وحدة الدال والمدلول، ويؤكد دريدا أن هذا خداع مطلق فحسب لأن مفهوم الدال والمدلول الذي جاءنا من علم اللسانيات والذي استعارته البنيوية بحماس هو صورة أخرى لمفهوم الكلام والكتابة التقليدي الذي يُعلي من قدر الكلام على حساب الكتابة - إنه المفهوم المبتذل للكتابة - كما وصفه دريدا ،،،،هو نسق التمركز حول الصوت الذي ربما هو ما يمثل التمركز حول (اللوجوس) ،،، الصوت الذاتي الذي يعبر أكثر ما يعبر عن كينونة الذات صاحبة الصوت ، إنها مثالية المعنى والدلالة ،،،اللوجوس ،،، العقل،،،، السلطة المرجعية،،،، الكينونة المتعالية ،،، إن الاعتقاد السائد في التراث الغربي بصدد الكتابة هو ذلك الفهم المبتذل تحديداً الذي كان يوجه فهمهم للغة ، على الرغم من أنهم لم يكونوا واعين به تماماً، مثلما وجه أداءهم في ميدان النقد الأدبي من خلال الدفع إلى الاعتقاد بأن كل شيء يستنبط المعنى ويعطيه فقط حينما يرتبط بفكرة ما، والتي ينبغي أن ترتبط بالمقابل بفكرة أخرى وهكذا دواليك بحيث أن الأفكار ستتجمع في فكرتنا عن الكينونة المتعالية ، اللوجوس ،،، مركزية الأفكار ونسقيتها التي تتجمع حول مركز واحد هو ذاك التأثير الجمعي الذي مارسته الميتافيزيقا على فهمنا للغة ،،، الميتافيزيقا هنا بمعنى ما وراء المادة،،، الشعور بوجود شيء ومعنى وغاية وراء كل شيء ،،، وجود روح ما محركة للأشياء هي تلك الميتافزيقا التي حاول دريدا تحرير فهمنا للغة والكتابة من التأثير الجمعي الذي مارسته، وقد توصل لعملية التحرير تلك من خلال صياغته لمفهومين جديدين من الممكن أن يبطلا مفهوم اللغة القديم وطريقة النقد القديمة ،،، فنحن حينما نزعم أننا صغنا أفكاراً جديدة فإننا لم نفعل في الحقيقة سوى إعادة تحويل

للأفكار القديمة. فعلى سبيل المثال المصطلحات اللسانية التي جاء بها (سوسير) والتي يقال إنها احدثت ثورة في فهمنا للغة هي - والحق أن بالإمكان أن تتولد- نتاج آخر للميتافزيقا ،،،، المفهومان الجديدان هما (الاختلاف والأثر) و (التأجيل أو الإرجاء) ،،، يرى دريدا المفهومين كوظيفة مزدوجة لأي علامة مشترطة الاختلاف الذي يعني أن العلامة شيء لا يشبه علامة أخرى والأرجاء وهو قدرة العلامة على إرجاء أو تأجيل الدلالة والمعنى ،،، فنحن نميز بين كلمتي (حب) و (حرب) رغم تشابهما فهما مختلفان تماماً وتكشفان عن هويتهما ،،، وبرغم إحالة فكرة (دريدا) الهامة من التمركز حول الصوت والكلام إلى التمركز حول الكتابة والذي يمثل قلباً إيجابياً للمفهوم التقليدي بأولوية الكلام أو الكلمة المنطوقة على الكتابة أو الكلمة المكتوبة فإن بعض النقاد يعتقد أن ذلك المنهج الدريدي التفكيكي هو تركيز على الكتابة ،،،، هو تمركز حول الكتابة،،،فهو التركيز على الجسد ،،، الكتابة ،، أما الفهم التقليدي فهو تمركز حول الصوت - اللوجوس- تمركز حول الروح والغاية والتي يرفض أولويتها المنهج التفكيكي مثلما يرفض سلطة الوسيط ،،، إنه تحدٍّ لما هو أخلاقي ،،، إنه في رأي بعض النقاد يعني اختفاء الرب وأن المنهج التفكيكي عدمي بطبيعته وقد تكون كل هذه التوكيدات صحيحة ،،، إن المفهوم النسقي القديم للغة يوحي بأن هناك مركزاً في مكان ما ، وهذا المركز هو المفهوم المركزي الذي من الممكن اكتشافه بوصفه الكينونة أو السلطة المتعالية ،،،مفهوم يوحي بأن كل شيء يسير على أفضل وجه أو أنه قابل للفهم على الأقل ، فحيثما وجد النسق ينعدم الارتباك ،، وسيؤكد التفكيك أن هذه أوهام فحسب إذ كل ما نزعمه بأنه

الحقيقة أو الكينونة والمعنى لا تمثل سوى (فبركة) أو مجموعة فبركات عشوائية مهولة تشير إلى فشلنا الذريع في بحثنا عن المعنى والحقيقة ،،، ألا توحي كتابات (دريدا) بأن كل ما كُتب على مر التاريخ هو محض خيال ؟ ،،، يوحي التفكيك الدريدي بهذا ولا شك ،،، فماذا عن مفهوم المعنى والحقيقة والماهية والكينونة والله ؟ ،،، لا ينكر دريدا وجود الله بل إنه يتساءل على نحو غير مباشر عن مفهومنا للرب،،، ويشير إلى أنه نظام دفاعي يردنا ويحمينا ويدفعنا دوماً لمفهوم المركز والمصدر ،،، يشير إلى أنه ربما مفاهيم ذهنية مثل الكينونة والحقيقة والمعنى هي عالم محرم على الإنسان، ربما تكون وراء فهم الإنسان ، إنه يشعر بغياب ولا يستطيع أن يفعل إزاءه شيء سوى تخيله أو تكوين معنى واه عنه في أحسن الأحوال وأنه ولا شك هذا الإحساس بالغياب والتوق للحضور هو الكتابة الأصلية التي يتحدث عنها دريدا ،، دريدا الذي شرع في الإطاحة بالأديان فهي عنده قد مثلت حصانات لتقيد العقل بالميتافزيقا ،،، دريدا الذي هو امتداد وتطور زمني طبيعي للشك والحيرة وتحطيم الميتافزيقا والأحكام المسبقة والدعوة لإعادة التفكير بمفاهيم الحقيقة والمعنى والدلالة والله واللغة ذاتها ،،، دريدا الابن الشرعي للحضارة الغربية التي ولدت من قبله (نيتشه) كبير الشكاكين واستاذه هيدجر كبير الحائرين الحائمين حول (ماهية الحقيقة) ،،،، دريدا،،، الملاك التفكيكي كما دعاه البعض.

أتوقف عن انهمار الكتابة لثوان وأتأمل السماء عبر نافذة الشاليه فأنهي الكتابة : ومن (هانز جادمر) لـ (مارتن هيدجر) يا قلبي لا تضجر

أبتسم باستغراب لما كتبته في هاتيك الأثناء الحالمة ...... أتجرع زجاجة بيرة باردة وأسرع بوضع النوتة بداخل الحقيبة لأهرع مهرولا

باتجاه الرفقة وقد بدءوا في نزول البحر واحدا تلو الآخر، بينما كنت ماكثاً أكتب في الشاليه ،،،، أتمشى بتؤدة إلى أن أصل للكراسي البلاستيكية وقد تراص عليها كومة من ملابسهم وموبايلاتهم ،،، أخلع التي شيرت وأتامل جسدي لوهلات، ثم أنظر إلى حيثما يسبحون وأقترب من الحد الذي يتلاعب بين الموج الفائر والرمال الناعمة لتلامس قدماي الماء بقشعريرة تغزو جسدي،،، أستمر في الدخول ،،،، وأستمر ،،، ينظرون إليّ ويتحدثون،،،، عمَّ يتساءلون ؟،،، لا أدري ،،، أغوص في الماء لأتوارى عن أنظارهم ثم أظهر فجأة من بين أقدام أحدهم :

- صباحو جي

ضاحكاً : - صباح العسل ،،، كنت بتعمل ايه

أسد أنفي وأنزل بكامل جسمي ثم أطفو أمامه وبلهجة عابثة أوضح له

- من هانز جادمر لمارتن هيدجر ،،، يا قلب لا تضجر

- ياعم دي دماغ ولا مكان تعرف تكتب فيه ؟

- دي عز الدماغ والمكان يا ابو شيري ،،، عيب لما تقول كده

باسماً ومقتنعاً : فل الكلام

نتلاعب بالماء ونظرات زائعة بيننا والثلاثة الباقون يتراقصون بين الموج ويصيح أحدهم :

- لعبوه يا لعبوووه

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٢٥-

-أحلى حاجة هذه الأيام أنها أيام ذكورية بحتة

- مش حلوأوي يعني،، لو فيه نسوان يبقى أحلى

- الله يحرقك أنت والنسوان

- دي حتي اسمها سُكر وعربدة ،،، متلازمتان

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٢٦-

- آلو

-آلو ،، إيه ؟ ،،، أزيك ؟

- حمد لله ،،، أنت فين

- أنا في عايدة ،،،

- عايدة ؟ مع مين ؟ (بتشكك مصطنع)

أحاول أن أبدو طبيعياً،،،، - مع أصحابي والمصحف،،، في عايدة المنتزة

- آه ،،،

-آه ،،، متيجي يا ولة ،،،

- آجي يا ولة ؟

- المية هنا جامدة ،،، والبحر عموما عسل،،، وأنا محتاج أتكلم معاكي و ،،،

- بص ،،، النهاردة مش حينفع ،،، بكرة كلمني ونظبط ،،، ماشي ؟

-مش فاهم حاجة بس حقول إيه ،،، ماشي ،، حكلمك بكرة ،،،،،نتوادع بود ،،،،

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٢٧-

ليس الأمر يتعلق بوجع نفسي أو جسدي ما يتلاشى تحت تأثير المخدر، هذا ما لم أعد أستمتع به الآن البتة ، ولكنها تلك القدرة التي حسبتها وهماً ولكن بتكرار التجربة تأكدت منها،،، شعور السيطرة و التمكن، فكل شيء يصير سهلاً مقدور الفعل بمجرد التفكير فيه أو التركيز عليه ،،، قدرة ما ورائية لا تُسمى ،،، ولكنها موجودة وحقيقية أو هكذا تراءى لي على الأقل من محك التجربة.

أنتظرها على بوابة عايدة، أراها قادمة من بعيد ومعها صديقتها التي لا أعرفها ،،، تراني ،، تترك صديقتها وتسرع الخطى ، أشير للجالس على البوابة بالكارنيهات فيبتسم بإيماءة موافقة.

تفاجئني عندما تلقي نفسها بصدري،،، أحتضنها بشوق وأنظر لعينيها وابتسامة لاهية واسعة تعلوني ،،، ألمح صديقتها فألقي عليها التحية ،، أقودها للشاليه الذي أجده خاليا، أتصل بأحد رفقائي الخمسة وأخبره بالوضع فيأتي ،،، أشعر الآن بفوران في جسدي يضاهي بل يفوق فوران البحر ،،، يأخذنا البحر وموجه ثم لا أتذكر ما حدث بعد ذلك ،،، نعم لا

أتذكر شيئاً ،،،

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٢٨-

أواخر أمشير أبو الزعابيب ،،، يكتنفني الدفء بينما الصقيع بالخارج يأكل الأطراف والريح تتقاذف البشر والأشياء كقدر كارثي

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٢٩-

الرياح سريعة والأمواج عالية بما لا يسمح بأي عمليات للصيد

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٣٠-

تتنسم سيجارتها في تلذذ ،،، تلتصق بجوار المدفئة كالقطة ،،، تراقبني وأنا أتكلم بعصبية تليفونياً مع أحدهم ،،، أنهي المكالمة وأجلس بجوارها أرضاً ،،،،

- مالك ،،، عصبي ليه ؟

ببرود - الحالة زيرو ،،، مفيش فلوس ،،،

ببرود مماثل - عادي

صمت ما أستغله في سحب الطبق الواسع من المنضدة المجاورة ،،، طبق غرائبي ،،، مثال حي للعربدة في طبق ،،، قطع الحشيش المتراصة ،،، أقراصي الحالمة ترتكن جانباً ،،، زجاجة خمر متأنقة وكأسان من كريستال شبيه بالثلج الأبيض ،،، أهمس بصوت خفيض متقطع :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

- همم ،، بتقول إيه ؟

أكرر ما قلته بصوت أعلى متقمصاً أعرابياً ذا عمامة وسيفا وهميا صدئا،

بتهكم : إيه ده برضه ،، فهمني

-دي هرتلة، فكك

- لا لا بجد فهمني ،، أنا مش حمارة

بسخرية هادئة : مش نظرية حمارة ،، دي أنت حتى ودانك صغننة وجميلة ،،، ده يا معلمة بيت شعر لشاعر مجنون اسمه المتنبي (تشير بإيماءة من وجهها عن معرفتها له) أشرح لها أفكار الرجل وفلسفته الباطنية بين ثنايا شعره ،،، فالعاقل أو الإنسان كثير التفكير لا يجد المتعة حتى وإن سكن النعيم ،،، أما الجاهل فإنه راض ،،، قانع ،، هاشٌ باش هادىء البال وإن سكن الفقر أو الفقر والشقاء سكنه ،،،، يطول حديثي وتتفرع أغصانه وتتشابك وفي الخلال تكون يداي مشغولتين بـ (حروقه) قطعة حشيش لإحالتها لبودرة وأخلطها مع التبغ ،،، لا أعلم كيف طال حديثي ولا كيف وصل بنا الكلام إلى حدوة حصان القائد الفرنسي- والتي لم يربطها العامل على خيل القائد جيداً- الذي تعرقل على أعتاب جليد موسكو لينتهي مجد بونابرت على مشارف موسكو بفعل تأثير الفراشة، إنها تلك الليلة حيث الأسطبل الملكي والقائم على خيل القائد يربط بعناية حدوات حصان القائد الأربع بادئاً بأقدام الفرس الخلفية ،،، يلتقط أنفاسه ويشرب

من نبيذه الفرنسي ويكمل ربط الحدوتين الأماميتين ،،، (لورينا)،،، يتذكر حبيبة الشتاء الفائت (لورينا) ،،،والتسكع بطرقات تولوز ،،، شفتاها ،،، جسدها ،،، شبهته يومها بالمسمار ، ضايقه التشبيه ولكنه لم يلبث أن فهم مغزاه ،،، يكمل ربط مسمار الحدوة الأمامية الاخيرة بإهمال وذكرى لورينا تتراقص أمام عينيه.

وريقة (البفرة) تدور بين أصابعي بمغزلية ،،، الدخان الأزرق يعبىء الغرفة الدافئة وكؤوس الخمر الدائخة والأقراص الفائحة في أطباقها تطير نحو فمي ،،،، هي لا تهتم سوى بالجوان الثقيل ،،، ليس لها في قلاع طبق العربدة السحري ولا خموري اللاذعة الدخان يعلو سقف الحجرة ويتلوى، غيوم عابرة حمراء عابرة أتأملها ورفيقتي في صمت عبر النافذة المغلقة ،،، ينفلت لسانها من تحت عباءة اللاوعي الهائمة ،،، تحكي وتحكي ،،، حبها الأول ،،، اشتغالها بمكتب سياحي ،،،أهتم بحديثها الدائخ وأقهقه عندما تفقد طرف حديثها وتغيب بعين نصف مغمضة.

- وإن كان حبك يا هيثم يغنيني عن حب وائل ،،، فأبو أمك يا هيثم على أبو أم وائل ،،،

أضحك من قلبي لعبارتها فتردف وتسألني

- أنت إيه هواياتك ؟

بسخرية وبفصحى ركيكة ملتوية : أهوى النساء والمخدرات والقراءة،،، وأحيانا الكتابة

آخر ما سألته قبل أن ترتمي في حضني ،،، تغشاها غيبوبة خفيفة وابتسامة لاهية جميلة، حالة من اللاواقع واللاحلم والنشوة الرائقة تجعل كلينا

أرواحا تائهة في دروب الفوضى ،،، تتراخى بين ذراعي ، تعرف شفتاي اللاهثة طريقهما ،،، ألمح سلسلتها الذهبية تتدلى على صدرها،،، تلك الذهبية التي تتنفس البريق ،،، بريق يعكس لمعة عيني و ورود شفتيها،،، أتنفس بشرتها ،،، أنفي يدعو يدي لمأدبة بين جنان جسدها ،،، شفتاي ترتعدان لرجفة جسدك بين أناملي التي لم تقرب بعد غير قُبة كتفك بينما أمشير بالخارج يرتعد ويبرق وكأنما هو نذير لما لا يأتي أبداً.

||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٣١-

شعاع الشمس الدافىء يتسلل من النافذة شبه المفتوحة ليغازل نصف وجهي ، دماغي المسافر في أحلامه يغزوه الدفء هو الآخر ،، أفتح عيني ببطء وتكاسل ثم أزيح وجهي بعيداً عن الشعاع الشمسي الذي يضايق عيني فجأة ،،، لا أعلم لماذا أتذكر الآنَ ما كتبته في عايدة ،، داخل الشاليه،،، أنظر يميني لأجدها نائمة كهرة شيرازي بجانبي ، أتحسس شعرها بهدوء لا يوقظها ثم أتسحب لأغادر السرير إلى حقيبتي السوداء وأفتحها،،، النوتة والقلم ،،،، أسرح قليلاً فيما كتبته وأبتسم ابتسامة خفية ،،،، (حفريات المعرفة) وميشيل فوكو و التمركز حول الكتابة وعدمية جاك دريدا المابعد حداثية ،،، ولكن ماذا عن حفريات حقيقية ،،، حفريات أنكر وجودها بالطبع كل من يعادي نظرية التطور والفكرة الداروينية التي غيرت من مسار علوم شتى ،، بل أدعي أنها غيرت جذرياً كل العلوم ،،،الأشياء في ترفهها وتطورها (كمل من المصادفة والضرورة ،،،،،بالطبع يجب أن ينكروها ،،، تلك الحفريات التي تم اكتشافها فعلاً هي حفريات موجودة وحقيقية وليست وهما تدل وتشير إلى أسلاف الإنسان الحالي ،،، الإنسان

العاقل ،،،، أحاول التذكر لثوان ثم أكتب :

أن أقدم البشريين **homoniens** الحقيقيين المعروفين لدينا الآن الأسترالوبيتك **australopitheque**

أو الأسترالنتوب **authtralanthrope**

الإنسان الجنوبي كما يدعوهم لوروا غوران بحق،،،، كانوا يملكون الميزات التي تفرق الإنسان عن أقرب أقربائه ، ألا وهي القردة الراقية ، لقد اعتمدت جماعات الأوسترالنتوب الوقوف المنتصب المقرون لا بتخصص القدم فحسب بل وبتحولات عديدة في الهيكل والمجموعة العضلية وخاصة العمود الفقري ووضعية الجمجمة بالنسبة لهذا الأخير، إن البحث قد تركز بشدة على الأهمية التي قد تكون حصلت لتحرير الإنسان خلال تطوره من الأسر الناتج عن السير على أربع والذي تمارسه القردة العليا ما عدا الجيبون **gibbon**

إن هذا الإنجاز السابق لم يكن له أي أهمية تذكر إلا أنه سمح لأجدادنا من الاوسترالوبيتك من أن يصبحوا صيادين قادرين على استعمال أطرافهم الأمامية في اصطياد النمور دون أن يتوقفوا عن الركض أو المشي.

الزنجانتروب **zinjanthrope**

وإن كان وزن دماغه لا يزيد على وزن دماغ الغوريلا فإنه كان قادراً على القيام بإنجازات ليست معروفة عند القردة ، كان له في الواقع صناعة شديدة البدائية لدرجة أن أدواته ما كانت لتصنف باسم أدوات مصنوعة بالفعل إلا بسبب تكرار وجودها حول بعض الهياكل الأحفورية ،،، إن القردة العليا قادرة على استعمال أدوات طبيعية كالحجارة و أغصان الأشجار عندما

يتاح لها ذلك إلا أنها لا تنتج أبداً أشياء مصنوعة ، وتبعاً لذلك يجب اعتبار الزنجانتروب على أنه (إنسان حاذق ذكي)

homofaber إنسان ذكي شديد البدائية

ومن المحتمل جداً أن بين تطور التعبير اللغوي من جهة وتطور صناعة بدائية تشهد بنشاط هادف ومنتظم من جهة أخرى ، يوجد ارتباط وثيق ويبدو منطقياً أن نفترض أن الزنجانتروب كانوا يملكون فيما بينهم وسيلة اتصال رمزية على مستوى صناعتهم البدائية وكذلك الأسترالنتوب إن كان صحيحاً أنهم كانوا يصيدون حيوانات قوية وخطرة كالكركدن وفرس النهر والنمر فلابد أن ذلك كان إنجازاً تتفق عليه مجموعة من الصيادين ولابد أن التحضير المسبق لمشروع كهذا كان يفترض استعمال لغة ما.

يمر اليومان سريعاً ،،، أترك الشقة التي أستأجرتها وأغادر مع صديقي وأنا أكاد يغشاني النوم بل أنام بالفعل، كما ذكرني صديقي بأننا بعد تسليم الشقة لصاحبها جلسنا على القهوة وأخذت أنا أثرثر مع رجل عجوز يجلس بجانبنا ثم تركت رأسي فجأة للوراء نائما والرجل تعلوه الدهشة،،، أذهب مع صديقي إلى منزله ولا أتذكر شيئاً إلا وأنا ألقي جسدي على سريره والنوم العميق

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

رائحة السجائر تتسلل إلى أنفي فأفتح عيني ببطء ،،،

-هات سيجارة يا لول

يعطيني السيجارة وأسأله

- هو أبوك وأمك هنا ؟

يضحك ويقول - يا بني احنا امبارح دخلنا البيت وأكلنا معاهم وأنت قعدت تهزر معاهم وشربت الشاي معاهم في ساعتين.

أستغرب بشدة وأضحك لما أسمعه لأني حقيقة لا أتذكره ،،،أنهض لأغتسل سريعاً وأعود مستغرباً ذلك الشورت الذي أرتديه ،،،(أكيد بتاع (اللول))أشعل سيجارة وأجلس بوهن أرى انعكاس وجهي في المرآة المقابلة للكنبة التي أجلس عليها على بُعد مترين تقريباً ،، أتأمل وجهي وأسرح بشدة وكأنما وجهي هذا يذوب في وجهي هناك ،، نقترب ونبتعد،، نتضخم لنتضاءل ثم التحام رغم البعد المكاني بيني وبين المرآة،، يدنو كلانا من الآخر بسرعة أخالها سرعة الضوء ،،،لن تتكرر تلك الدماغ فوق الخيالية مرة أخرى ،، فلأستمتع بكل لحظة فيها ،،، أنفث دخاني صانعاً حلقات تتسع ،،، وتعلو،،، وتختفي عن الأنظار كما يختفي أي شيء بين حضور وغياب وغياب

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

لأني من صغري وصغر سني عارف معنى أني ،، من قلبي وروحي مصري والنيل داخلي يسري، فقد قررت كما أسلفت الاستمتاع بكل لحظة في ذاك الحلم الشفيف ،،، قررت سرقة التليفون المحمول المُلقى أمامي هو وصاحبه الليبي الذي سكر حتي الثمالة حتى فقد وعيه على رمل البحر ،،، حمله عمال الشاطىء وصاحبه يقف متفرجاً وألقوا به خارج الشاطىء خوفاً من أن يموت وتقبض الشرطة أرواحهم ،،،ينظر له صديقه الليبي الآخر في ذهول ثمل ،، لا يدري ماذا يفعل ؟ ،، يضحك؟،،، ينتظر فوقته؟،،،وأنا أقف مع (اللول) نراقب الموقف عن كثب بينما كنا واقفين على شارع البحر،،، أمام فندق ريجينسي ! ،،،أقدمت بصفتي طبيباً عليهما ، بنظرات قليلة ألاحظ أنه سكران طينة وأن زميله قد سقط من الخمر،نحمله من الأرض إلى أحد المقاعد الأسمنتية المجاورة ،،، ويسقط تليفون المغشي عليه من الجاكيت الجلدي ،،، تشتعل الفكرة في رأسي المسافر الحالم في لحظة وأقرر تنفيذ الفكرة بلا تردد ،،، سأسرق ذلك التليفون من هؤلاء البهائم ،،، لا أقصد أن الليبيين بهائم ،،، مطلقاً! لي أصدقاء منهم ذوو شخصيات وعقليات محترمة ولكن هذين الاثنين كانا مثالاً لعُتل ليبي بربري ، بعد ذلك زنيم ،،،،فلم أتردد بدماغي الشرير المسافر في التقاط التليفون في غفلة من صديقه السكران التائه المذعور من سقوطه.

نبيع التليفون المسروق ونقبض ثمنه ونقرر إكمال مبلغ كاف للسفر إلى شرم الشيخ ؟ ،،، لا ،،،دهب ! ،،، أرخص ،،، وليست بعيدة عن شرم،

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٣٤-

إلى أن ركبت الأتوبيس أنا وصديقي وسقط كلانا نائمين في نفس المقعد لا أتذكر كثيراً من أحداث ثلاث ليال قضيناها أنا و(اللول) بين دهب وشرم ،، نتذكر حلم الليالي الثلاث ونتضاحك بهيسترية ،، يذكرني هو بتلك الفتاة التي كانت تركب معنا الأتوبيس، لم تركبه من الإسكندرية، صحونا أنا وهو في الإسماعيلية على ضجيج الركاب الذاهبين إلى شرم ودهب حينما وقف الأتوبيس لتحميل باقي كراسيه الشاغرة من الإسماعيلية، ننظر ببراءة طفلين والنوم والدماغ والإرهاق تحوم بنجومها اللامعة حول رأسينا إلى الركاب الجُدد ، أراها تقترب ،،، أجنبية ،، شقراء وصديقتها الشقراء الأخرى تعبر بخطوات رشيقة وهي تضحك وتتكلم مع صديقتها ربما في سب أو مدح مصر، تلتقي عيناي بعينيها ،،، تتوقف عن الضحك وتطيل النظر إليَّ ثم تبتسم ، حينما تعبر بجانبي لم أتردد.

- هاي

هي : هاي

تجلس وصديقتها في مقعد خلفنا مباشرة ، نتشاور لدقائق أنا و (اللول) في كيفية التعرف عليهما، وإذ بشيء يرتطم على أرض الأتوبيس بجانبي ، إنه زجاجة ماء تقع منها وتسارع بالتقاطها ، تلتقي عينانا مرة أخرى فأنتهز الفرصة ضاحكاً:

- كان أي درينك ،، بليز

بابتسامة مرحبة - أوف كورس ،،،، تعطيني الزجاجة لأبلل بها حلقي الجاف وأناولها (اللول) ليشرب وأرجعها لها في ود و أشكرها.

- كلمها .

أضحك - مش عارف ،،، مكسوف ،،، لما تطلب معايا أهجم أهجم، متستعجلنيش والنبي

- أنا خايف ننام نقوم ملاقيهموش ،، حقك علي !

أضحك بصوت عال وخلاعة : ماشي ماشي ،،، حنظبطهم

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٣٥-

بالفعل ،،، دقائق نصمت فيها لنسقط في غيبوبة أخرى حالمة بعيداً عن أرض الواقع ، ولكن يتبادل كل منا الصحو والتأمين على وجود الفاتنتين خلفنا وينام مرة أخرى إلى أن وصلنا شرم الشيخ ،،، ننزل ونشعل سجارتين بعد شوق ،،، سيجارة لا تنسى ،،، شعرت برأسي يدور ثم يستقر ثم يطير وأنا أراقب الشقراوين وإحداهما تذهب لشراء شيء ما من سوبر ماركت والأخرى تجلس بخفة على رصيف بجوار الأتوبيس ،،، أسرع خطاي ثم أبطئها قبل الوصول لها بأمتار قليلة وأجلس بجوارها.

- هاي

- هاي

- where you from ?

- England

hmmm ... so you are tourist? -

تضحك لسؤالي وتجيب

no ... I'm studying here in egypt -

study what ? -

arabic langauage -

oh good ... I'm physican ... nice to meet u ...? -

veronika ... nice to meet you too -

ayman ...me is ayman -

يقطع حديثنا سائق الأتوبيس الذي ينادي على الركاب الذاهبين لدهب،،، أوف لك ! ،،، أنهض وفيرونكا وتلحق هي بصديقتها لتحكي لها وألحق أنا بـ (اللول) لأحكي له ، تمر الساعة سريعاً لنصل دهب ونحمل حقائبنا في تركيز يكاد يجعلنا ننسى الفاتنتين الإنجليزيتين ، نذهب ونبادرهما الحديث الذي يعاني منه (اللول) لعدم إتقانه الإنجليزية،،، أتكلم معها ،،، فيرونكا في طريقها لفندق معين تحجز فيه ،،، نحجز في نفس الفندق

see you!-

see you .... -

||||||||||||||||||||||||||||||||||

لم تكن فيرونكا فتاة عادية ،،، تركت وطنها منذ أعوام ولكنها تعاود بين حين وآخر زيارة أهلها في انجلترا ،،، والداها المسيحيان المحافظان عارضا نمط حياتها المتمرد وانجذابها للشرق ورغبتها في دراسة اللغة العربية ولكنها نفذت ما قررته لحياتها ،،، مرت بنفس التجربة الفكرية التي مررت بها تجاه الأديان والله ،،،

- are you christian ?
- no
- are you muslim ?
- no

لم يطل استغرابي حينما شرحت لي أفكارها ،،، غريبة مصادفات تلك الحياة ،،، بل غريبة الحياة ذاتها ،، ربما هي نفس التساؤلات تقريباً عن الوجود والحرية و السلطة وإن كانت تتخذ لديها منحى فلسفيا بحتا ، أحدثها بدوري عن أفكاري ومنحاها الفلسفي و العلمي أيضاً حول الحرية والمعرفة و فكرة التطور التي صعدت بالحياة لأسمى صورها وهو الإنسان الذي ربما يتطور بدوره بغير طرائق الانتخاب الطبيعي والتطور القديمة التي كبحها الإنسان ،،، ما بعد الإنسان ،،، ماذا بعد الإنسان ؟ ،،، تلك الفكرة المابعدية التي تشغل فكر الغرب الآن وظهرت كثيراً في السينما لديهم خاصة السينما الأمريكية ،،، سوبر مان والطفرات والمارتكس وغيرهم آلاف الأمثلة والتي أثرت على أفكار مخرجيهم ليخرجوها

لشاشة السينما ،،، وما بعد الإنسان

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٣٧-

تضاعف الخمر من تراقص الحلم صغير السن ،،، أراقصها في خفة على أنغام أنريك أجليسيوس ،،، دُقي أجراسي ،،، دُقي أجراسي ،، وينضج الحلم زمناً في لذة أقدم من الأبد ،،،،

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٣٨-

ولما لفظ (زارا) الكلمات الأخيرة من خطابه ، رأى نفسه أمام مخرج غارة فترك ضيوفه وانطلق يستنشق الهواء النقي هاتفاً :

- يا للنفحات الطيبات ويا للسكينة السعيدة ، تعاليا إليَّ يا نسري وأفعواني وقولا لي: أراقتكما رائحة هؤلاء الرجال الراقون؟ إنني أشعر الآن بمقدار حبي لكما

إنني أحبكما يا نسري وأفعواني

ودار الحيوانان حول زارا وحدقا به طويلاً وبقي الثلاثة يستنشقون هواء بليلاً لا يظفرون بمثله في مجلس الرجال الراقين

وما خرج زارا من الغار حتى وقف الشيخ القديس الساحر مرسلاً نظرات التجسس والخوف من حوله وهو يقول :

لقد أخلى زارا المكان !

فيأيها الرجال الراقون وما أدعوكم بهذا النعت إلا تشبهاً بزارا في ثنائه

عليكم ، فإنه ما كاد يخرج هو حتى عاد فاستولى على روحي ،،، الخداع الماكر الساحر وما هو إلا شيطان أشجاني ، العدو اللدود لزارا فلا تلوموا هذا الشيطان إذا طمح إلى إبداء ضروب سحره أمامكم وقد اجتاحته نوبة من نوباته ولطالما حاولت مقاومتها بلا جدوى

إن روحي الشريرة عدو لزارا وهو صديقكم جميعاً ، سواء أدُعيتم رجال الفكر الحر أم رجال الحق أم رجال كفارة العقل أم رجال الثورة أم رجال الشوق الأعظم أنتم المصابون بما أُصبت به من الكراهة العظمى، أنتم المؤمنون بأن الله قد مات دون أن يكون على أحد الأسرة إله آخر تشده الأقمطة في طفولته

إنني أعرف من أنتم يا أهل الرقي وأعرف أيضاً من زارا الذي أتوجه إليه بحبي مرغماً لأنني أحس بأن قديسا سينبثق منه ، ويلوح لي أحياناً إنه هيكل يسكن فيه شيطان الأشجان فأحبه أيضاً لحلول روحي الشريرة في سريرته.

لقد أوشك هذا الروح أن يستولي علي ، وها هو ذا يصرعني ، فيا له من شيطان يتقمص أشجان الغسق !

افتحوا أعينكم أيها الراقون ، إن هذا الروح يتجسد ولا أدري أيظهر عارياً في هيئة رجل أم في هيئة مرأة ؟

لقد بدأ ستار العتمة ينسدل حتى على خير الأشياء

أعيروا سمعكم وحدقوا ، أهو رجل أم امرأة هذا الروح ، روح أشجان المساء

هكذا تكلم الساحر الشيخ ثم أدار لحاظه فيمن حوله وقبض على

قيثارته

من (هكذا تكلم زاردشت ،،،)

فريدريك نيتشه ،،، وبتصرف

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٣٩-

أرجع للبيت وتحمد أمي رجوعي بالسلامة من إجازتي ،،،،أدلف بسرعة إلى حجرتي فلا أريد أي مواجهات كلامية مع آخرين ،،، ألقي بشنطي السوداء جانبا وأخرج ما بها من قصاصات ووريقات، كتبتها أثناء الرحلة ،،، أوصي أمي بألا توقظني لأي سبب أو لأي أحد ،، أغلق هاتفي،،، وأنام عميقاً ،،، عميقاً.

أصحو لآكل ثم أنام ،،،أصحو لآكل ثم أنام ،،،، هكذا أستمر الحال بي لمدة يومين حتي تعجبت أمي ولاحظت هذا .

- تعبان أوي ،،، شكلها اللوز ،،، وأشير بوهن أمثله إلى اللوزتين وأنسحب من على الطعام إلى سريري مرة أخرى ،،، قررت لا أعلم متى،،، ربما أثناء نومي بأن أضع حداً لإدماني هذا ،،، نعم أنا مدمن وإن كان إدمان نفسي لا تصاحبه أعراض انسحاب ولكنني أعترف بأنني أحببت تجربتي مع الدماغ ،،، أحببت الدماغ والسُكر والكوكتيلات الدماغية التي احترفتها ،،، تعلقت بها بشدة ربما لسعة خيالي الموجودة مسبقاً والتي أججتها الأقراص والدخان والخمر ولكن لمتى ؟؟،،، يجب أن أضع حدا لهذا ،،، و ليكن هذه الأيام ،،،، تتردد تلك الأفكار بين أرجاء عقلي ،،،

أوه،،، سوبر مان ،،، الجنة الآن ،،،، و ،،، خخخخخخخخ

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٤٠-

وكان صلى الله عليه وسلم لا يخشى في الله لومة لائم وكان وصحابته الكرام...

صوت الخطيب الجهوري يتسلل لمخدعي مخبراً أياي بأن اليوم الجمعة ،،، تتبلور الفكرة في رأسي ،،، أشعر بوعيي الطبيعي ،،، لا أثر لأي دماغ أو شعور بنشاط مفتعل بل رغبة حقيقية أترجمها لحركة لأنهض وأتوضأ وأنتوي صلاة الجمعة بعد انقطاع دام شهوراً ،،، لا أتذكر بدقة ، ربما عاماً .

أشعة الشمس تصدمني رغم دفئها المقاوم لبرودة الجو ، صارت عيني أكثر حساسية للشمس فأضطر إلى قطب جبيني ،، أتأمل السائرين حولي وأمامي ذهاباً للصلاة ،،، بعضهم يرتدي جلاليب بيض ناصعة، هذا حليق،،، هذا ملتح ،،، أفكر إلى أي جامع أذهب ،،، المساجد كُثر هنا ،،، أحدد اتجاهي وأصل للمسجد القريب ،،،، يفترش المصلون الطريق الواسع أمام المسجد الذي امتلأ بداخله ،،، أفتش بعيني عن مكان لأجلس فأجده ،،، أخلع حذائي و أجلس على المكان الخالي من السجادة البلاستيكية.

-السلام عليكم

ألقي السلام ويتمتم من بجواري رادين لي السلام ،،، أنتبه لصوت الخطيب الهادىء ويتصادف بغرائبية أنه لا يتكلم وقد سيطر عليه إجبار

التكرار المعتاد لدى خطبائنا عموماً حول الكلام المكرر والخطب المُعادة عن الرسول وأخلاقه وغزواته والصحابة وبطولتهم ،،لا ،،،بل كان يناقش موضوعا جدليا هاما ،،، موضوعا من المواضيع المسكوت عنها ،،، المتروكة ،،، ربما الممنوعة من النقاش ،،،مع صوته الهادىء استبشرت جداً ،،،، (مقتل كبار الصحابة) عندما اختلفوا و انقسموا إلى فريقين ،فريق (علي بن أبي طالب) وفريق (معاوية بن أبي سفيان) والمعارك في تلك الفترة العصيبة من الإسلام بين المسلمين بعضهم وبعض ،،،معركة صفين ومعركة الجمل عندما حاربت السيدة عائشة عليًّا وهي تقبع بداخل جملها في مؤخرة الجيش وتراقب المعركة ،،، حتى أواخر أيام الفتنة التي انتهت بمقتل (علي) ،،، ومقتل آلاف المسلمين حتى أنه يتحدث البعض عن خمسين ألف نفس أُريقت دماؤها في تلك المعارك بين المسلمين وبعضهم تحت إمرة (معاوية) و(عائشة) و (علي) ،،، ولكن وياللعجب يصل الخطيب إلى نتيجة مذهلة أستشعرها مسبقاً من طريقة احترامه الشديدة لدرجة الافتعال ،،، أي ذكر لأي صحابي في الفريقين يجب قبلها وضع (رضي الله عنه) حتمية لصيقة لا جدال فيها ،،، يصل العبقري إلى أنهم جميعاً رضي الله عنهم وأرضاهم قد اختلفوا كما يختلف الساسة الآن وعبر التاريخ في آرائهم السياسية وربما يصل الاختلاف لحد الحرب الضروس التي يراق فيها بعض دماء المسلمين ولكنهم في النهاية هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عاشوا معه خلال بعثته ورسالته، وكلهم مبشرون بالجنة بل ومعصومون من الخطأ ،،، رضي الله عنهم وأرضاهم، هكذا ببساطة منهياً ذلك الجدل حول آلاف من قتلى المسلمين وانقسام شديد بين الصحابة لدرجة اعتزال بعضهم تلك الفتنة

وعدم الانحياز لأي من الفريقين مغلطاً ربما الفريقين معاً ،،،؟؟ ،،، هؤلاء هم تاريخياً ربما من أطلق عليهم فيما بعد المعتزلة ،،،،، متجاهلاً مقدمات لنتائج وحقائق تاريخية عجيبة مثل أن أطول أسرة قد حكمت في التاريخ - وقد حكمت لمدة ثمانية قرون- هي أسرة بني أمية ،،،، ثمانمائة عام؟! ،،، ينهي خطبته العصماء بوصف مآثر هؤلاء الصحابة التاريخية عبر روايات أكاد أجزم بأنه هو ذاته يشك في صحتها ،،، يدعو وأنا والمصلون من حولي ،،، آمين ،،، أمين ،،، أصلي الركعتين بخشوع وألبس حذائي مقرراً عدم سماع أي خطب جمعة بعد اليوم والمجيء في وقت الصلاة مباشرةً بعد انتهاء الخطبة!

لن أحدثك بالطبع وأثرثر طويلاً عن ليالي الشجن والتيه والبحث عما لا تعرفه والموسيقى ومنير يتساءل بانفعال (واخدني ليه بعيد ؟ يا حلم يا عنيد ؟ على شواطىء الغربة ،،، على شواطىء الغربة) وهو ينصح ربما في تاريخية لا يقصدها ،،، ينصح نفسه المغتربة وكل المغتربين أمثاله بأن يبحثوا عن الناس في قلوب الناس ،،، ودروع الناس،،،، ولا عن نغمات الميتال المعدنية الغاضبة الغامضة و ،،، وبالطبع القراءة ،،،، وقليلاً الكتابة التي وبرغم نسياني لها لأيام وشهور طويلة إلا أني عندما أعود لها فإني أعود لها بشدة ولأيام متتالية ،،، ولا عن البحر ورياحه والفُلك الغريب ،،، أحملها جراحي لترحل في المغيب.

أتصل بالممرضة وأسألها إن كانت تريد المجيء إلى العيادة اليوم فلا تمانع وأذهب للعيادة وأفتح بابها ونوافذها وأشعل سيجارة وأتأمل سقف الحجرة وذلك العنكبوت النونو الذي يتسلق خيطا خفيا لا أراه منفذاً خطته الدقيقة في بناء مسكنه الجديد ،،، أفكر ،،، و أفكر.

عشق الظلام

-١-

بعد مرور ثلاث سنوات،،،،

تتراقص عيناي الثملة مع جنون أنامل بيتهوفن لامحاً نصف زجاجة الويسكي .... يختفي ترنيم البيانو من أذني منسحباً أمام دقات الساعة التاسعة....سأغير تلك الساعة عما قريب لقد صارت من أعدائي بصوتها الزاعق كدقات أحدب نوتردام....أبتسم بداخلي مخموراً وأتساءل بسخرية لاهية .... نصف الزجاجة في نصف ساعة؟..... أرقام قياسية من جديد؟.... أذن....فلتأت بها يا ساقي !....أمد يدي بارتعاش ثمل محبب صوب الويسكي صاباً كأساً أنتويه الأخير زمانه .... توقفت لمدة عامين عن صناعة كوكتيلات الدماغ الحالم من ترامادولات وأموترلات ولكسوتانيلات وفاليوم وحشيش وخمر ،،، استطعت التشبث بالواقع والهروب من أرض الخيال ،،،أخذتني دوامة الحياة والعمل والطب ، جاءتني فرصة أجدت استغلالها لنشر بعض كتاباتي وأشعاري ،،، نشرت مجموعة قصصية وديوان شعر لم تحقق نجاحاً سريعاً ولكنها أبرزت اسمي من كاتب مغمور إلى قليل من الشهرة.

الشهور الأخيرة وقد تعدلت كثيراً أحوالي المادية، ومن ثم بدأت إهمال عملي وعيادتي التي صارت تدر دخلاً لا بأس به بالإضافة للكتابة

التي بدورها بدأت تدر دخلا جيداً هي الأخرى ،،، عُدت إلى احتساء الخمر منذ أشهر قليلة ،،، أصبحت عادة ليلية ولا أستطيع الكتابة إلا وأنا ثمل، يضايقني هذا بشدة ولكنني اعتدت عليه ،،، بالطبع تركت الصلاة مرة أخرى بعد التزام طويل حسبته اعتياداً أكثر منه التزاماً بطقس وددت لو أنه قربني إلى السماء.

دقات خفيفة على باب غرفتي تجعلني أسرع بشرب الكأس.....إنها سارة....ابنتي..... ادخلي يا سارة.

تدلف الصغيرة عبر الباب وعلى وجهها ابتسامة تحمل خبثا طفوليا متشممة رائحة الغرفة الدخاني مع رائحة الكحول السكير.....أنهض لتغطية منضدة الخمر والمتبلات وبقايا الرُبع واحدة التي ظلت بارزة بعد التغطية بذلك المفرش التراثي في حياتي فادفعها تحت غطائها و يقفز السؤال إلى لساني فأسألها: ألا تستطيعين النوم ؟

لا أجد إجابة فالتفت ناحيتها لأجدها تشير برأسها ذات اليمين تارة وذات اليسار تارة أخرى أن لاااااا....صرخت بوداعة فجأة ...لاااا مش عارفة أنام.....أقترب منها لأحملها بين ذراعي وألتقط سي دي لفيلم جرافيك أمريكي وجدته عند أحد أصدقائي وأخذته بنية مشاهدته مع سارة....أجلس أمام الكومبيوتر وأدخل السي دي وسارة بين يساري وصدري تشاهدني وتنتظر....أنظر لها وأفكر في تقبيل وجنتها ولكني أتراجع ...رائحة الكحول أيها السكير الوقح !!.....يبدأ الفيلم..... الأرض أصبحت مخزنا للنفايات بعد تغير الطقس غير الملائم للعيش فيهاجر سكان الأرض إلى أحد الكواكب الأخرى.....(وإلى) الروبوت الوحيد في المدينة الأمريكية الخالية اتخذ لنفسه وظيفة جامع القمامة

المعدنية ليحولها إلى مربعات معدنية .....لماذا ؟؟....لا أعلم....أنظر لسارة فأجدها غير مستمتعة.....أجد خيالي فضفاضاً للحكي..... سارة احكي لك حدوتة ..؟؟

بشوق .... احك

أوقف الفيلم وأحملها إلى غرفتها وأجلسها إلى جواري على سريرها وقدماي تتدليان من حافة السرير الصغير.

القط والفار.....(أقولها وأنظر مباشراً لعينيها العسليتين فأتذكر عين أمها)...عقدوا اتفاقية صلح .... وأصبحوا صديقين حميمين....حتى إنهما قد تقاسما السكن....وفي إحدى الليالي تعب الفأر ولم يدر ماذا يفعل القط لمداواة صديقه .....يتسلل لأحد الصيدليات ويسرق كبسولة مضاد حيوي لفكها في صحن اللبن ويضعها أمام الفأر.

أستمر في الحكي تساعدني الخمر في اختلاق الأحداث التي أشوق بها سارة.....لا أجد نهاية مناسبة.....بعدما طالت الأقصوصة فأنظر لفتاتي الصغيرة وأجدها قد غفلت..بركة يا سارة إنها جت منك ...أغمض عيني أنا الآخر....أغفو لغفوتها ....أدثرها من برد الشتاء....وأتركها ملقياً جسدي المنهك .

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٢-

صباح اليوم التالي

أصحو مبكراً كعادتي كلما تواجدت ابنتي معي....أجهز لها الفطور بعناية......ستأتي أمها بعد ساعة لـتأخذها.

تتركها بناء على اتفاق ثلاثة أيام معي وتأخذها باقي الأسبوع لمنزل والدتها حيث تقطن بعد طلاقنا.....يمر صرصور صغير بجانب طبق السندويتشات ...أتابع مسيره وقد دلف إلى فتحة صغيرة بجانب حوض المياه.....أحمل الطبق وأذهب لإيقاظ سارة.

||||||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٣-

غلطة مطبعية في الكود اللامرئي للتزامنات العشوائية المتوازية قد أخرجته من الإسكندرية تلك الليلة الحُلم، ودماؤه تحمل براميل النبيذ الأيرلندي الفاخر وكبسولاته المهلوسة والكثير من الدخان الأزرق... تحملها على عربات خشبية يجرها خيل افتراضي يأكل الطريق نحو دماغه....أستقر ليلتها بتلك الدماغ الخارج عن نطاق الشعور في ديسكو

وكافيه بالمعادي مع الرفقة ليكمل سهرته....رآها ...رأته.... كانت ثملة هي الأخرى .....وكالتقاء عفوي بين أرجوحة مرتعشة وطفلة في ليل دافئ كانت البداية.....تبادلا التليفونات.....مرت أيام ....تحدثا كثيراً... التقيا مرة تلو الأخرى....كان شعورها به يتأكد ....أنه هو.....لا شك.... آه هو .....وشعوره يحدثه عن كونها أكثر من اقتربت من روحه الحائرة وروضتها....هي ...هي...تزوجا خلال شهرين مرا كدقيقتين ...... وتطلقا بعد عام ونصف مرا كثانية ونصف وكان نتاج الزيجة زهرة شفافة يانعة....سارة الجميلة.

||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٤-

يخلع البالطو الأبيض بعد انتهاء يوم عمل في عيادته...يوم غير مرهق.... الساعة تقارب الحادية عشرة ومازال نشطاً وتنتابه الرغبة الشديدة في كتابة الشعر.....غزة...الشتاء....سارة....وطنه الأعمى كالوطاويط....كل شيء مهيأ لسقوط الأمطار.....آلاف الشجون الأفكار....يريد الكتابة... إنه الشعر......ذاك الداء العضال و(الجيفة الخالدة) بحسب تعبيرة (محمد الماغوط) الخالدة.

..........تستأذن الممرضة بالمغادرة فيأذن لها.........يشعل سيجارته ... وكارتماء نشوة شجن يرتمي على كرسيه نصف الوثير قيد خطوة من المكتب الذي يطفو فوقه أشياؤه من لزومياته وما لا يلزمه.....

حامل أقلام يحتضن ثلاثة أقلام يقترب لونها جميعًا من الأسود مضفيا شيئا من الأناقة اللامفهومة....كتبه الطبية المتراصة...جهازً ضغط... طفاية تحمل بقايا سيجارتين محطمتين تنتظران صديقتهما النائمة في دفء أصابعي..... متأملا سقف حجرة الكشف الأبيض والمروحة التي يتخذها العنكبوت بيتاً كل شتاء...يدير عينيه في أنحاء الغرفة....لوحات طبية ...يقف نظره عند شهادة البكالريوس وشهادة الماجستير الجديدة المعلقتين بجوار بعضهما البعض.....من أنا؟....تتخبط التساؤلات في جوانب رأسه مع آخر أنفاس سيجارته....يحمل حقيبته ويغلق العيادة بعناية من اكتشف صباح يوم أن العيادة قد سُرقت...الباب مفشوش...... ولا تليفزيون...ولا جهاز ضغط...ولا.....ولا.....يتأكد من إحكام الغلق مرة أخرى وينزل متثاقل الخطى على السلم المظلم ....لايريد الضوء.....فقط النزول على درج سلم مظلم قد يصيبه بنشوة ما تلك الأيام.....يتحسس طريقه.....طريقه العاشق للظلام....عشق الظلام ،،،

السكوتوفيليا **scotophilia**

يصاب به بعض المحبوسين في الزنزانات الانفرادية المظلمة بعد خروجهم منها، تصيب المعانين من حساسية للضوء بسبب الآلام الجسدية المبرحة التي تنتابهم بالنهار كمرضى (البورفيريا) ،،، أولئك الذين منهم أخذت أصل أساطير مصاصي الدماء ببشرتهم الشاحبة وأنيابهم التي تستطيل وخوفهم من الضوء ،،،وهو ما قد يعرضهم للانتحار في ضوء الشمس، تصيب أيضا بعض عمال المناجم العميقة ،،،ولكن في كثير من حالات السكوتوفيليا تصيب أولئك المحبين لحرية التعبير ،،، قد تكون بمعنى حب الحرية بمعناها الواسع المطلق ،،، الحرية والهروب

من الحمقى والباهتين في وضح النهار والضوء ،،،، إنه عشق الظلام ،، وعشاق الظلام ،،،هل تحب العيش في الكهوف المظلمة ؟،،، نعم أحبذ هذا،،، هل تشعر بأن النور مشحون بالأشخاص المعادين لك ؟ ،،، سمك القرش ؟؟،،، عاشق للظلام مثالي.

ينسب علماء النفس اسم السكوتوفيليا إلى (سمكة الكهوف) التي تنتمي إلى عائلة إمبليوبسيدي السمكية وهي سمكة تعيش في الكهوف ، تخشى النور ، ولا تهاجر أبداً وإن حفت بها المخاطر ،،، يتحدد وجودها بوجود سمكة أخرى كهفية مفترسة اسمها (تيفليشتيس سبتيرانوس) ، تناصبها العداء دائماً ،، هي علي أية حال سمكة صغيرة لا يتعدى طولها عشرة سنتميترات ، لها حدقات واسعة لكنها ،، ويا للتناقض ، عمياء و لا تصدر أي ردة فعل تجاه الضوء ،،، لهذه السمكة معدل ميتابولي أو إيضي ضعيف للغاية ،،، تقريباً لا تأكل البتة ،،، اكتئابها كاكتئابي مصحوب بفقدان الشهية ،،، فيما عدا ذلك لا أهمية لها البتة ،،، لا أقصدني أنا ،،، أقصد السمكة ،،، قد تنقلب حالة السكوتوفيليا إلى حالة النيكروفيليا NECROPHILIA

عشق الموت ،،، أخشى هذا ،،،، بالفعل تراودني تلك الأيام ميول انتحارية ،،، يقولون إن علاج تلك الحالة بالجلوس أمام المرآة في ضوء خافت لفترات طويلة ،،، هراء،،، محض هراء

تلسعه رياح شتوية باردة فور خروجه من باب البناية....يهرول نحو سيارته ليلتحف بداخلها منطلقاً لمنزله....لقد أخذت سارة معها....فقط أنا والطريق

وأعمدة الأنارة

والخوف.....نعم إنه الخوف

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٥-

الكسندر دورين الروسي يصف وحشية التتار في أوركسترا سيمفوني يفوق خيال الكلمات

-٦-

رائحة البيت اختلفت بعد رحيلك سارة.....أدخل غرفتي بشوق غير مألوف....أستغربني وأنا أنظر لي من الخارج.....أتحرر من حقيبتي وملابس العمل ....فقط بنطلون ثقيل وبلوفر طويل ...و الدفاية..... أزيح الستار عن مسرح منضدة الخمر ....أسارع بجوان يلقي بظلال دماغ جيد.....أبدأ في احتساء المارتيني (الذي أهواه تلك الأيام)....وأنهض بعنفوان نحو الديسك ..... الكسندر دورين وكمانات وبيانو يصف وحشية التتار في أوركسترا سيفوني يفوق خيال الأبجدية والكلمات......

أتساءل وقد لاحظت اختياري العفوي للكسندر والتتار في ذات الوقت الذي يفعمني رغبات شعرية سياقها يدور حول الحرب وغزة.....أجد التفسير سريعا.....أنكب على كؤوسي وقلمي الذي أغيره يوميا.....أنا أكثر من يضيع أقلامه ،،،، ....

يسألونك عن حق العودة؟

أي حق؟.....أيملك عربي حقاً سوى حق الخنوع؟

تسلط....غباء.....إجبار أقدار ندعيه قسماً ونصيباً.....إجبار تكرار أخطائك

تراث دائخ كشمس فقدت بريقها.....شمس للضوء تجوع

موات الشموس ليس نهايتها.....إنه بداية لنجم ثاقب خفي... رؤاه ممنوع

نهاية القول ....ألف ألف ممنوع

بصري عند ثاقب خفي ولوع....أنقدها،،، أقتلها،،، ورغم ذلك أبقي عليها عشقاً لولع الشمس المائتة بالظلام.....مثلي

لقد خانني القلم وكتب ما سبق رغما عني....مطلقا ليس رغما عني بنسبة مائة في المائة....لكنها اندفاع الكلمات لتسرد وتتناص جملاً سريعة فجأة بدون تأمل يشعرني بلا مجهود.....رغم أن ذاك الاندفاع يعطي كثيرا من يخفيه اللاشعور.....خيانة القلم ربما تشبه زلات اللسان والنكات والأخطاء الكتابية......أين أنت يا لاكان؟؟..............أقطع حبل افكاري برغبة مني محاولا للكتابة....والشعر....ولكنها الدماغ والخمر التي ترمي بي بعيدا بعيدا....كثيرا كثيرا........أتامل التليفزيون الصغير الذي لم أعد أفتحه البتة بعد ٢٠ يوما من أحداث غزة.....وذاك الحائط خلفه الذي لطخته عشوائيا عبر عامي الأول لامتلاك المنزل وحيطانه بالصور لعديد من المشاهير ..بوب ديلان ...مايكل جاكسون...كارل بوبر....فرويد..كارل ج يونج...جيمس دين....والكثيرون غيرهم.... أول الصور كانت لشيمون بيريز الثعلب الإسرائيلي من جريدة قومية ما.....نزعتها وبلعابي لصقتها على منتصف الحائط.....حق العودة..... أمممممممم.

أتذكر بعض القصاصات التي جمعتها أثناء متابعتي لأحداث غزة قبل شمع بيزيز الأحمر على شاشتي.....أنهض حافياً دافئا وألتقط التليفون الذي حوت ذاكرته بعض كتاباتي اللحظية وملاحظاتي في أوقات غياب القلم.........أقرأ بإهمال ماذا يمكن أن تفيد وقائع الأرض في حرب غزة على مسيرة القصيد؟؟... ولأني أعلم أنها قد تفيد ولكن بحدودية ما.... أقرأ ولكن ....بإهمال.....أحتسي كأساً أخرى....وأقرأ

٦ فجرا

اليوم ١٣ على حرب غزة......٧٦٥شهيداً

الشيوخ الأمريكية يدرس مشروعا للدعم اللامتناهي لإسرائيل

صواريخ من جنوب لبنان إلى شمال إسرائيل وحزب الله ينفي وإسرائيل تستبعد......أقهقه بداخلي...هأو....وإسرائيل تستبعد..... تستعرض

٤ فجرا

اليوم ١٨.....٩١٩ شهيدا ٤٦٠٠ جريح

قصف قنابل فسفورية مكثف يزيد من الحرب النفسية مع قصف مدفعي وبري وبحري.

بيريز : ما حققناه في ١٦ يوما يفوق ١٦ عاما في الحرب على الإرهاب......لا يا راجل!!...لربما تهزم المقاومة ولكن لا داعي للتضخيم الإعلامي من متحدث سياسي يفترض رفعة مستواه......

هنية بمسكنه المتواضع .. وغرفة الاستقبال .. وسرير النوم والشرشف يشيد بالمقاومة الباسلة ومشعل يكرر الإشادة من مقر إقامته في أفخم فنادق دمشق و يأخذ تعليماته من سورياوإيران ..ومع التعليمات الثمن والرواتب، تلك الأوامر صدرها إلى غزة وأدت إلى التحرش بأ عتى وأشرس قوة وأدت إلى تدمير غزة.. وإصابة سبعة آلاف مواطن ..مابين قتيل وجريح ومشوه ومعاق وتمتد المعاناة على الأحياء من ذوي أولئك الضحايا المغلوبين على أمرهم إلى يوم الدين .

لم يمض وقت طويل على انتهاء أحداث غزة حتى يعود الصراع السلطوي بين فتح وحماس ،،، و (القدومي) يكشف عن مؤامرة حاكها (عباس) رئيس السلطة الفلسطينية و (دحدوح) النائب مع (أرئيل شارون) لاغتيال الرئيس الأسبق ياسر عرفات ولا تلبث سلطة فتح في رام الله على إغلاق مكتب قناة الجزيرة؛ لأنها كما يدعون تفتت الداخل الفلسطيني ،،، كما هي دوماً مبرراتنا العربية، وعلى الجانب الآخر في غزة ما تزال حماس ترعى مكتب قناة الجزيرة وحتي داخل إسرائيل ما زالت الجزيرة تعمل، والصوماليون يتآكلون في صراع بين المتمردين والحكومة، والكشميريون يذوقون طعم الدم يومياً ، وتشاد وزائير وكل دم عربي مسلم ما زال يراق كأنما العالم قد انتهى من القتل وسفك الدماء إلا الدماء العربية ،،،

حمراء (قانية الدم)..... أمطار هذا الشتاء

والثمار ولحم الشياه...... أيحب أحدكم أن يشرب دم أخيه ميتا؟؟؟

متاهة الكلمات المتناصة جنبا إلى جنب قد لا تؤدي مطلقاً إلى سبيل المعنى .. إنه معنى الجور...الظلم الذي ورثه الضعيف في جينومه اليومي....والقمع الذي نفخ كروش جينوم اليوم المتسلط كبلطة...... بلطة السلطة على رقاب الضعاف....كاليجولا الذي كان يستغرب شعوره بالوحدة إذا لم يقتل أحدهم ..هو هو الذي لا يرتاح إلا بين الموتى.... هوهو الذي يقتله الشعور بالوحدة إذا لم يركب أحدهم ويدلدل قدميه..... هو هو الذي لا يرتاح إلا بين المستباحين ....هو هو قريب نيرون الطاغية الناري....ثَمَل يوما.... راوده خياله في أن يعيد بناء روما، وبدأت النيران من القاعدة الخشبية للسيرك الكبير حيث شبت فيها النيران وانتشرت بشدة لمدة أسبوع في أنحاء روما، والتهمت النيران عشرة أحياء من جملة أحياء المدينة الأربعة عشر، وبينما كانت النيران تتصاعد والأجساد تحترق كان نيرون جالساً في برج طروادة والحريق المرتفع قد خلب لبه وبيده آلة الطرب يغني أشعار هوميروس .

ولكنه الشعر.... أشعر أحيانا بأنه نفاق أنيق.....اصطياد كلمات غير منطوقة، ولكنها شائعة في اللاوعي الجمعي لدغدغة أحاسيسهم بدون تغيير حقيقي في وعيهم و إيجابية حركتهم في العالم.....ليست قاعدة

بالفعل....أنا أعلم أن الشعر هو أحد الوسائل التي ما زالت تحافظ على نسبة كافية من النقاء يحتفظ بها الجنس البشري ...فلولا الشعر ما كانت الحرية.....ولكنك ترى يوميا شعراء الحزب والرئيس وعلى الجانب الآخر شعراء المعارضة و...و....و الحلمنتيييشي....أنا لست شاعر النيل ولا شاعر الشباب ولا حتى شاعر الصنعة....أنا شاعر بنفسي وبالأشياء وبالناس من حولي.

ولهذا فقد قررت قراري بحرق كل ما كتبت عن غزة

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-٧-

الجميع يصغون بانتباه للمتحدث الذي يحاول أن يعلي من نبرة صوته المبحوحة مسمعًا الجميع.....إنها خطبته الأخيرة في قومه....يعلم يقينا هذا....يوشك على إنهائها ....لا يتمالك دموعه...يجهش البكاء الذي تتلقاه رمال الصحراء مطراً مباركاً سيحمي تلك الأمة لمئات السنين بعد موت الخطيب.....قبل أن تتكالب علينا الأمم كالأكلة على قصعتها..... يصرخ فيهم النبي وقد اهتز صوته بفعل البكاء : «إن دماءكم وأولادكم وأموالكم عليكم حرام ...كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

يعلم بداخله طبائع العرب مستقرئاً مستقبلا ضبابيا يراه عبر أفق القادم. يكرر باكيا: إن دماءكم وأولادكم وأموالكم عليكم ... حرام.... كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ....

يعلم أن هذا الدين ولد غريباً وسيعود غريباً......يكرر...وقد انخفض صوته بادياً عليه أمارات الإعياء : إن أموالكم وأولادكم ودماءكم ....

فطوبى للغرباء...!!...

..الغرباء مستباحي الدماء

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٨-

،،، (الحياة كبيرة ،،، أكبر منك ،،،وأنت لست أنا) ،،،، هكذا كان يغني موضوعه ،،، موضوع القرن كما يدعوه ،،، ويكمل ليقول : (ذلك الطريق الذي سأقطعه لعبور المسافة إلى عينيك ،،، أوه ،، لا لقد تكلمت كثيراً ،،، لا ليس بالقدر الكافي ،،، هذا أنا في هذا الرُّكن ،،،هذا أنا تحت نقطة الضوء ،،، وأنا أخسر ديانتي واعتقادي ،،،أحاول جاهدا أن أستمر معك ولكنني لا أعرف إن كنت أستطيع فعل هذا أو لا ،،، أوه ،،، لا لقد تكلمت كثيراً ،،، لا ليس بالقدر الكافي ،،، أعتقد أني سمعتك تضحك،،،

هل كنت تغني ؟،،، هل كنت تحاول؟ أتحاول ؟ ،،، كل همسة في كل ساعة تمر أختار اعترافاتي ،،، أحاول جاهدا أن تظل عيني عليك مثل تائه محرج و أحمق أعمى ،،، أحمق ،،، أوه ،،، لقد تكلمت كثيراً ،،، لا،،، ليس بالقدر الكافي ،،، هذا أنا في هذا الركن ،،، هذا أنا تحت نقطة الضوء،،، أتراني ؟ ،،، أما زلت تحاول ؟،،، أتحاول ؟)

وبغض النظر عما غناه الرجل فإن الأسطورة السكندرية تحكي عن بحرها الدائخ بين مد وجزر الذي أصاب بعض الساكنين حوله وبقربه بنفس الدوخة والدوار ،،،، دوار البحر ،،، يختار البحر طبقاً للأسطورة من يورثه دواره، يختارهم حالمي الأعين ،،، حائرين ،،، متسائلين ،،، متسامين مع سحر المعنى والبحر والشروق والغروب والأفق والنهاية ،،، الحياة ،،، الموت ،،، المعنى ،،، لربما يدعى البعض كونها طبيعة في الليل والماء قد تركبت في بحر هوائها .

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-٩-

عن ماهية تلك العلاقة النفسية الخفية بين الإنسان والذئب ،،؟ ،،، البشرية منذ نعومة أظافرها قد أسست الحاجة لأساطيرها النافعة والمرضية لنفسيات أفراد المجتمع ومدى تفاعل تلك النفسية مع الواقع والعكس ،،، أساطير مصاص الدماء البنسلفانية والرومانية والدنمراكية تحمل علاقة بين الإنسان وذلك الخفاش الكبير الذي يسكن الكهوف المظلمة ويكره الضوء ،،، مع وجود مرض يسمى البورفيريا يجعل المريض يشبه مصاص الدماء بالفعل تكون العلاقة الأسطورية منطقية ،،، الإنسان والذئب ،،،

المستذئب،،، أنتبه عند تقليد(جيمس) مطرب ميتاليكا الأساسي عواء الذئب وباقي أفراد الفريق كقطيع ذئاب منظم يعوون معه ،،،

عن أيام جديدة مناسبة لصيد الذئاب ذهب ،،، ذهب ،، وحدث الآتي: الشكل يتحول ، الأنف تشتم السماء لأعلى ،،، ها ،،، العودة لأيام خوال رائعة ،،، الشكل يتحول ،،، الحركة انسيابية ،،، شعر الرقبة يطول بلا مبرر،،، كل الحواس نقية وواضحة ،،، تبدو وكأنها عودة للمعنى ،،، معنى الحياة ،،،

تبدو لي تلك اللحظات كلحظات نشوة قليلة تلك الأيام ،،، أنا في سيارتي، وبجانبي سارة ستقضي باقي أيام الأسبوع مع أمها ،،، زوجتي السابقة ،،، انظر كم هي جميلة سارة ،،، يبدو عليها الاستماع باهتمام للأغنية الأمريكية ،،، (عن الذئب والإنسان) لفريق ميتاليكا ،،، أستغرب هذا، وأنظر لها فأجدها سارحة الخيال مع الأغنية على ما يبدو ،،، أنظر للطريق ،،،لا يمكن أن أكون ضعيفاً ، بعدما أضرمت نارالخبرات والناس والفكر النور في عقلي لا يمكن أن أكون ضعيفاً ،،، أنظر كم هي جميلة؟،،، ولأجلها سأظل أبحث عنك تارة أخرى بعد تارة ،،،أتساءل أحيانا لماذا تكرمت على بعض أنبيائك بكرامات وأمارات صريحة لألوهيتك وربوبيتك ولا تريد أن تتكرم علي ؟!، لا أدعو نفسي بقامة هؤلاء بالطبع ولكن قد تجمعنا صفة الحيرة والتساؤل التي ربما بسببها يصطفيهم الله رسلاً،، النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولياليه الطويلة المتأملة في غار حراء ،،، إبراهيم عليه السلام لما جن عليه الليل وهو يبحث عن ربه وسط أفول النجم وغروب الشمس وربي أرني كيف تحيي الموتى ؟،،، أولم تؤمن بعد يا إبراهيم ؟ ،،، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي،،، وأنا الآخر ،،،

أنا الآخر أريد أن يطمئن قلبي ،،، أرسل لي إشارة أو أمارة ما ،،، يجب أن أعترف وبوضوح أنه قد اختفي لدي شعور التدين الطبيعي الموروث اجتماعياً وجينياً بالضرورة منذ ملايين السنين هي عمر الإنسان ومعتقداته، الإنسان ما أن أوجد الكلام كوسيلة رمزية للاتصال مع بني جنسبه إذن كان من الطبيعي كما نحتت منطوقات حسية واقعية كشجرة أو سماء فسوف ينحت بالأحرى منطوقات أخرى معنوية غيبية كالله و الشيطان الناري والملاك النوراني ،،، إنه يبدو كاقتضاء التفسير الغائي الهادف لمعنى وجودنا ،،، فالدين إذن هو مكون أساسي من وعي ولا وعي البشر، تطور وترقى عبر ملايين السنين من مظاهر بدائية وثنية كالطوطم ومظاهر التطهر والتطير الغريبة إلى صورته التوحيدية الحالية ، كل هذا طبيعي ولا إشكال فيه لكن حق الإشكالية يكمن في التساؤل حول وجود أو عدم وجود كائن كلي قادر عليم مهيمن يسيطر على هذا الكون؟ ،،، أهز رأسي منتبهاً للطريق وكأنني أنفض عني أفكاري ،،، لا أريد الغوص في هذا الموضوع الذي يورثني غصة ،،، الشاهد أني لا أستطيع حتى أن أبدو ضعيفاً ،،، وسأستمر في بحثي عنك.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٠-

... فدهشتي ....وشفتي....تتساقط قطرات الندى من مروج زهرتي

أهوى تقبيل الورود الندية....

أتراها؟؟

زخات من أشباح كاسبر تتهادي من فوهة الزُهرية

اجعلني ملكاً بلا تاج !.......

أهديك فلكاً ....

ونجمةً ...

وأغنية...

ونبتة لا تذبل....

....كنت أنتظرك بشغف كرسالة في زجاجة ألقتها أميرة سكندرية

..........أما آن الأوان......إلهي

أما آن الأوان ؟؟....

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١١-

أستمر في القيادة على طريق البحر وسارة تتأمل الشمس، وقد اقتربت من ملامسة الأفق إيذاناً بانتهاء نهار وبداية ليل جديد ،،،، ولكن ماذا لو فشلت مجدداً في بحثي عنك ؟،، عندي ما يكفيني من حقائق غير قابلة للشك في أنه قد تكون الصدفة وحدها على النطاق الفيزيائي و الأحيائي وحتى تفاعلات البشر العادية والعلوم والفنون ونسق اللغة والمعيشة ذاتها هي من نظمت عشوائية وتضارب هذا الكون حتى ربما الارتقاء للوصول للوعي ،،، والذي من مظاهره البدائية - أقصد الوعي - وجود مشروع هادف للخلية الأولية والتي تمثل الوحدة البنائية لأجسام الكائنات

الحية،، هذا المشروع الهادف يبدو وكأنه لا ينجز إلا بوجود وعي ما ،،، وإن كان وعياً بدائياً لا يرتقي للوعي البشري الذي هو قمة سمو وتطور ورفاهة قانون الصدفة الشامل الذي يعمل تحت ضغط انتقاء الطبيعة ،،،، بالطبع لن يكون إلهي الذي أعبده هو الصفة الهُلام ،،، بالطبع لا ،،، فقط سأتجاهل الأمر برمته منتظراً هبة السماء الذي طال ما انتظرتها ولم تأت أبداً وسأظل أحلم وأتصور أن التطور لم يقف بعد ،،، الإنسان الذي يرى نيتشه أنه لم يوجد إلا منذ ثلاثمائة عام على يد (ديكارت) أو منذ مائتي عام على يد أنوار (كانت) كما يرى فوكو ،،،، ذلك الإنسان المخلوق الجديد الذي كان ماضيه هو فقط ماضيا وتاريخا لاهوتيا ،،، إلهي ،،، كل مظاهر حياة البشر ومعيشتهم ولغتهم بل والبشر ذاتهم كانوا مربوطين بالإلهي والسماوي، ولم يتحرر هذا الرباط القدري المتين إلا منذ مائتين أو ثلاثمائة عام ليظهر اسم الإنسان وحقوقه وواجباته و فرديته وحريته بازغاً معلنا انهيار كل ما هو سماوي أو إلهي ،،، لقد مات الله ،،، نيتشه الذي يدعي موت الله في الخطاب الثقافي الأوربي الحديث ،،، وربما في الخطاب الثقافي العالمي مستقبلاً ،،، ما بعد الإنسان ،،، الإنسان الفائق ،،، حُلم السوبر مان،،، الخلود ،،، التطور العلمي الرهيب الذي ولو اعتباطاً قد شهد تقدما تقنيا رهيبا بخصوص علوم الأحياء الدقيقة والجينات الوراثية قد كشف قدرا لا يستهان به من أسرار تركيب الخلية الأولية بحيث أنه ربما تم أو سيتم قريباً تخليق بعض عضيات الخلية كالميتوكوندريا والتي تعمل كخزانات ومولدات للطاقة ،،، أو كأجهزة جولجي ،،، لم يعُد سر الحياة بعيدا عن منهل العلم ،،، هكذا أرى وقد يخالفني البعض الرأي ولكني أرى أيضا ولا أظنني أبالغ أنه ربما يكون حلم الإنسان الفائق الأسمى ليس

حلماً شديد البعد وربما تشهده أجيال قريبة ،،، وربما قريبة جداً ،،، اللعنة على استرسال الأفكار هذا.

أفكر جدياً بالعودة لها ،،، زوجتي ،،، أرى الرغبة في عينيها الآن وأنا أقف على الباب وأداعبها.

- مش حتدخليني ولا إيه ؟

تبتسم ابتسامة خجلة لعوبا وتدعوني للدخول ،،، برغم عصبيتها وعدم قدرتها على الوقوف بجانبي في فترة قاسية في حياتي فإنني ألتمس لها العذر فأنا بالتأكيد إنسان بطبيعتي أثير القلق ،،، قلق من يكون معي ،،، ولكن يعتبره البعض قلقاً جميلاً ،،، قلقا هادئاً إن جاز لي التعبير ،،، وهي لمست هذا الشيء بداخلي ،،، أفكر في الرجوع إليها ولكن لا مجال الآن للحلول الوسط ،، الحلول العائمة ،،، إما منتهى التعقل أو منتهى الجنون، ماذا لو انحرفت الآن انحرافاً فجائياً عن مسار الطريق الطبيعي باتجاه الرصيف والسور المنخفض الذي يعلو أمتاراً عن رمال البحر ؟؟ وما ذنب البراءة الجالسة بجواري ؟ إنه الجنون الذي طالما انتظرته ولم يأتِ ،،، فقط هي سارة التي تحملني على التنفس تلك الأيام ،،،سبب كاف لوجودي وهجري للتفكير المستمر في أفكار النهاية ،،، والموت ،،، بعدما توقفت عن صناعة الأدمغة والغيابيب - فقط أحتسي الخمر عندما يلهبني الشوق للهروب من الواقع - فكرت بعمق في فكرة مغادرة الحياة ،،، الانتحار ،،، بل وقد حسبت طويلاً الفضائح التي ستطال عائلتي وطفلتي ،،، سأظل أبحث عنك يا إلهي ،،، أرجوك ،، لا تخذلني تلك المرة فقد أتيتك بضآلتي وضعفي وجهلي .

،،، إلهي ،،، أما آن الأوان ؟

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-١٢-

سأستمر في بحثي عنك ،،،

ولتعتبر هذا كموقف ،،، ربما كمواقف النفري التي بين يدي الآن

وقد ارتبط بي بشدة ، ، موقف الكبرياء ،،،

الكبرياء موقف ،،،

أقرأ ببطء

فكلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة :

تراجع لا الذي الباطن وأنا ظهوره ، يكشفه لا الذي الظاهر ،،، أنا لي،،، كبرياؤه فيَّ أوقفني ،،، علمه يدرك البواطن

اجتمعت فيه الجمع فخُلقت وعُدت منه ،،، أنا ولا مني شيء ،،، فلا فرق ،،، فخُلقت ،،، بدأت لي ،،، وقال المتباينات وتآلفت المتفرقات ، فتحادثه ترجمتي ،، يفهم كل عبد لي فتخاطبه ،،، لغتي يعرفها كل عبد لي.

||||||||||||||||||||||||||||||||||||

-١٣-

أصحو الخامسة فجراً بعد انتهاء حلم من ذلك النوع الذي يوقظك مفزوعاً بعد مشاهدته ،،، يحلو له أن يوقظك قبل الفجر بقليل

ألتقط القلم والورقة على المنضدة المستطيلة الحمراء بجانبي

التدوين فوري : ،،، (غيوم وسُدم الحلم وأنفاس النعاس ما تزال تسيطر عليَّ ،،، أحاول التذكر)

التدوين فوري !! أكتب مرة أخرى : بينما كنت نائماً إذا بباب الغرفة ينخلع بعنف مدوٍّ وينحشر فيه رأس ثور هائج ضخم يصدر صوتا أشبه بنباح الكلب من خوار الثيران العادية ،،، ألمح خلفه (الماتادور) يقف واضعاً يدا فوق أخرى مبتسماً ببرود و سلبية ،،، أنهض مفزوعاً ولا أجد سوى الشباك المفتوح والذي زاد اتساعه ليسمح لي بالقفز ،،، أنظر تحتي بعدما تسلقت الشباك ،،، ستكون قفزة مريعة ،، ويتوقف الحلم ،، أجد نفسي خارج الغرفة وبسرعة وقوة أغلق الباب وأسحب الثور من قرنيه للداخل ،،، أتركه وأنظر للحائط بجوار باب الغرفة ،،، السيوف قد تبدلت أماكنها على الحائط ،،، لا إنه فقط السيف الأوسط قد انزلق يميناً قليلاً ،،، انزلق ،،، يميناً ، أدفع حافة الشباك بيميني ، ولكن الثور الهائج قد هشم الباب ،،، السقوط من عل ؟ ،،،يتوقف الحلم مرة أخرى لثوان بلا معنى أو زمن ثم أفيق مفزوعاً.

ألقي النوتة والقلم بجانبي ،،،لست أدري إن حاولت التدوين بسرعة لدرجة بدلت فيها أحداث الحلم زمنياً أو مكانياً ؟ ،،، أغفل هذا ،،، المهم أني سجلت الأحداث بغض النظر عن ترتيبها ،،، الأهم الرمز اللغوي،،،

أنهض لأتأمل باب الغرفة السليم ،،، تدفعني فكرة أو إحساس ما ،،، أنظر بقصدية للسيوف المُعلقة بجوار الباب لأجد السيف الأوسط مال يساراً وليس يميناً كما كتبت ،،، أنه انزلق ومال ،،، هل التقطته عيني فور دخولي الغرفة اليوم ولم تدرك عيني ميله ناحية اليسار ولكن عدم الإدراك هذا قد أسقط الحدث في بئر لاوعيي ؟ ،،،الإنسان يرى ويسجل ويكود

كل شيء يراه ولكنه قد يتناساه لسبب أو لآخر ليسقطه في اللاوعي الثري كمُلك سليمان ،،،ولكن عفواً ،،، لماذا ثور ؟ ،،، ومن هذا الماتادور الهادىء ؟، مهلاً ،،،، أعدل من الوضعية المائلة للسيف الأوسط وأتذكر،،، أرجع للخلف عدة سنوات ،،، تلك الأيام ،،، عبد الرحمن ؟ ! ،،، أيعقل هذا ؟ ،،، لم أرَ هذا الرجل منذ سنوات ، لماذا يخرجه لاوعيي الآن ؟ ،، أم أن حدثا تزامنيا ما بين الحلم وأمر مكروه حدث للرجل الآن ؟ ،،،

لم أكن أعرف وقتها أن هذا الرجل هو (عبد الرحمن أدهم إسماعيل أحمد إسماعيل إبراهيم أدهم) حفيد العالم الرياضي والمفكر والأديب المصري السكندري ،،، عرفت هذا منذ ثلاثة أشهر فحسب ،،، بحثت عنه،،، بالطبع لم أجده ،،، إلى أن قابلته بعدما يئست من بحثي عنه مصادفة،،، أم ضرورة ؟ ،،، لا أدري ،،،قابلته بالصدفة وأنا راجع عصراً من عملي بمستشفى قريب من ٤٥ ، كان يوما صيفيا شديد الحرارة والعرق يقطر من تحت قميصي الأزرق ،،، أقطب حاجبي اتقاء لحرارة الشمس وألمحه ،،، يبدو شديد الإعياء شبه مُلقى أو نائم على رصيف مجاور لمحل شواء أسماك ،،، أقترب منه ،،، إنه هو ،،، أميل بجسدي ناحيته و أسأله عن حاله ،،، لا يجيبني ،،، بل لا يفتح عينيه عند سماع صوتي،،،ينظر لي أحد عمال محل السمك مرتدياً قفازا جلدياً أسود

أقف وأفكر لثوان ،،، أنظر للعامل مرة أخرى فأجده ما زال ينظر لي،،، أقرر ،،، أذهب له وأطلب منه المعونة في حمل (عبد الرحمن) إلى عيادتي غير البعيدة من هذا المكان ،،، يستجيب لطلبي بحفاوة شعبية ويستأذن معلمه ويحمل معي (عبد الرحمن) الذي قد بدأ في الحركة والتمتمة عند حملنا له.

نصل للعيادة و ،،، ثم ماذا؟، لا أريد أن أحكي المزيد ،،، بحق لا أريد،،، أرجو المعذرة ،،،عرفت عنه ما عرفت وجهلت ما جهلت ولكنني في ذات الليلة كنت قد كتبت شيئاً ،،، سمعت منير وهو يتحدث عن البنورة المسحورة و أنه ليس كل ما يمر في أعمارنا الحرج ، قلب الحياة بداخله أشياء تثير الفرح ،،، أشعر معه بالفعل بأني سارح في غربة ولكنني لست مغتربا ،، أو مغترب ،،، لا فارق الآن ، ما زال مقام الحيرة العلي يرتاد جنبات أفكاري ،،، ما زلت أقرأ و أبحث و أكتب ،،، ما زلت أتنفس الآن.

||||||||||||||||||||||||||||||||||||||||

- ١٤ -

أجلس في شرفة منزلي الجديد ،،، نسيم صيفي مُحبب يخفف من رطوبة الجو الخانقة ،، أستنشق الهواء الخفيف وأغمض عيني ،، وأفتحها وبين يدي كتاب (السلطة و الفرد) برتراند راسل

سارة تجلس على أرضية الشرفة على بعد خطوات أمامي ،،، تصفف شعر عروستها بمشط صغير بين أناملها الصغيرة وتتحدث مع الدمية وكأنما هنالك حوار واقعي حاضر بينها وبين الدمية ،،، أبتسم لمرآها ،،، تتوقف عن عملها الشيق ،،، تنظر إلي ،،، أتأمل الكتاب ثم أنظر لها وأبتسم :

- بصي بصي ،،، (أشير بيدي إلى بقعة من السماء ونجومها المتوامضة بين السحاب الخفيف)

تنظر سارة إلى أعلى ،،،

- شايفة المربع اللي بين الأربع نجمات دول ،،، والنجمتين اللي طالعين شمال دول من النجمة دي في المربع ؟؟ ،،، (أشير لذات الكرسي)،، لأ،،،

هاتي عينيكي كده شوية

تجيب في دهشة بريئة وكأنما تشهق

- آه ،،، شايفاهم

أبتسم وأقول لها بصوت رفيع طفولي وأنا ألثغ لساني باصطناع في السين والذال والزاء :

- اسمهم ذات الكرسي ، عثان شبه الكرسي ،، مواقعها ثابتة من زمان،،، ألف سنة كده،،،،

أتوقف عن الكلام وأدقق فيها ووجهها الباسم الصبوح واهتمامها بكلامي

- سوو ،،، (أضحك بمجون وأتذكر) ،،،عارفة ؟ ،، فيه احتمال يكون فيه كام أرض فيها مية وناس وحصان وقطة زي أرضنا كده ؟ ،،، عشرة ملايين أرض ،،، الرقم مش دقيق طبعا بس بيدل على علو الاحتمالية ده

أتشكك فهمها لكلامي عندما تنظر لدميتها وتقول ببراءة :

- أنت ليه مش مؤمن ؟

يصدمني بشدة سؤالها المفاجىء ،،، أضع الكتاب جانباً فوق سور الشرفة ،،، أنظر لها صامتاً بجدية لثوان ،، أنا لم أحدثك مطلقاً عن ذلك الأمر والتجربة الشخصية الخاصة ،،،ربما تحدثت كثيرا وطويلاً مع أمك وربما كنت تسمعين ، لكم تمنيت أن تصبحي تلك الفتاة الذكية ! ويبدو أنك تفعلين هذا بوضوح يخيفني ،،، أحيانا كنت أتمنى النقيض ،، أتمناك بلهاء أحادية التفكير لا تهتمين لتلك الأمور وتسيرين في النسق المعيشي مستسلمة له ولأفكارهم فحسب ، أريد أن أقول لها الكثير ولكن أكتفي

بالقول :

- سارة ،،، أنا مش منكر وجوده ،،، أنا بس مش متأكد

أفكر بأن سؤالها هذا ربما يكون من لسان أمها عبرالطفلة لينتهي عندي،، أنفض تلك الوساوس التآمرية وأشبك بين أبهامي كفي لأصنع طائراً يتمايل أمام عينيها ،،،،

- بحبك مووووت

تلاعبني بطفولة أتوقعها : بحبك مووووز

- لأ ،،، قولي زي مبقول بأة ،،، بحبك مووووت

-لأ ،،، (وتضحك ملوحة بعروستها في مرح ،،،) ،، مش حقول ،، هه،، بحبك مووز

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٥-

ليس نجماً ليس إيماءتي

ليس وجهاً خاشعاً للقمر

هو ذا يأتي كرمح وثني

غازياً أرض الحروف

نازفاً – يرفع للشمس نزيفه

هوذا يلبس عُري الحجر

ويصلي للكهوف ،،، هو ذا يحتضن الأرض الخفيفة

((أدونيس))

-١٦-

انكسر سيفي ، اعوج سيفي ،،، ومات فرسي

البلل الدموي أستشعره ،،، أشتمه منسرباً بين مُزق ثيابي

حسب زمناً بان الدُمي وإن نطقت

،،، فهي دُمى ،،، لا تحمل نصلاً ، لا تحارب ، لا تستهدف

الآن فقط ،،، وبعد سفكي دماءها

،،،، ونزيف كالنهر يعتريني

يترك أثره على رمال صحراء الكريهة ،،

تاركاً رائحته الصدئة

أخاف أن يقتفيني عسسهم الليلي ،،، إذن لا أمل قريب في نجاة

آآآه ،،، أسجي جسدي الدامي فوق رمال الفلاة

وقبل فقدان حتمي للوعي ،،، أنتظره ،،، ألعق دمائي المتخثرة بين الأنامل

طعمه الأحمر يذكرني كثيراً بموطني

البحر ،،،،

تُري ؟ ،،، أسيأتي من يقفل بي رجوعاً ؟ أم أني دلفت عراكاً خاسراً في صحراء الدمى ؟

أهي آخر سؤالاتي ؟

،،، أم أنه ذاك الدوار النازف لبحر هجرته ،،، ليهجرني

ما كان له ما لي ،،،

لو كان له ما لي لجدف مثلي

،،، لجدف مثلي ،، (بكاء) ،،،

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

-١٧-

دو ساد

الماركيز يسقي زهور (رينيه) نبيذاً أحمر ،، لترقص (رينيه) ويرقص الزهر مع نمنمات الريح

IIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIIII

- تمت -

دوار البحر

أما عن ليلتي هذي وقد فاض الكيل وشارف قلمي على حرق أشعاري فقصف ذاته والانتحار .... ليس ثمة ما يُدعى حقيقياً.. ليس ثمة ما يُدعى حقيقة . ادعها ما يحلو لك ... تمثلات ... تخيلات ... افتراضات.. تهيؤات ... ماهية الكلمات بعلاقات الربط والسببية بالأشياء بذاتها.

وبغيرها من الأشياء والموجودات في إطار المحتمل والممكن داخل نطاق الزمن الشعوري المتغير و النسبي بطبيعته حسب رؤية المُراقب... أي من هذا العبث الاستهلاكي للغة والذي يحاول دوماً ترويض لجام. الحيرة والتساؤل .. والمعنى ...



اللوحة لـ محمود سعيد

